# التحيز في المصنفات العربية لتاريخ الادب العربي
## مقاربة نقدية

**الأستاذ المساعد الدكتور رائد فؤاد طالب**
**جامعة البصرة/ كلية الآداب**

**الملخص:-**

عُد موضوع تاريخ الادب واعادة كتابته اشكالية كبيرة في الثقافة العالمية منذ بدايات القرن العشرين ولا زال ، وقد ادى هذا الاشكال الى بروز مشاريع جديدة ترمي الى وضع استراتيجية تهدف الى بناء تصور نقدي معاصر لكتابة تاريخ ادبي يغاير ما كُتب في المرحلة السابقة ، وتاريخ الادب بمفهومه الحديث علم نشأ وتطور في الثقافة الاوروبية قبل ان يصل الينا عبر المستشرقين الذين حاولوا كتابة مصنفات في تاريخ الادب العربي ، ودراستنا تسعى الى اكتشاف ومناقشة التحيزات التي رافقت كتابة تاريخ الادب العربي من قبل المستشرقين والمؤرخين العرب الاوائل ، وصولا الى راهننا المعرفي الذي يستلزم منا اعادة النظر في تلك المصنفات التي عكفنا على دراستها او تدريسنا لها في اروقة الجامعات العربية لقرن من الزمان

***الكلمات المفتاحية : التحيز ، المصنفات العربية ، تاريخ الادب ، النقد***

# *The Prejudice in the Arabic Workbooks of the History of the Arabic Literature: A Critical Approach*

***Assistant Professor Dr. Ra'ed Fuad Talib***

***University of Basrah/College of Arts/ Arabic Department***

**Abstract:**

**Methodology for Writing about the history of literature is one of the biggest problems in Arabic culture. The present study investigates and discuss the biases that accompanied the writing of the history of Arab literature by orientalists and early Arabs to the present time in which these workbooks should be reconsidered.**

**key words : prejudice , workbooks , history of literature , criticism**

## المقدمة:-

عُد موضوع تاريخ الادب واعادة كتابته اشكالية كبيرة في الاوساط الثقافية منذ بدايات القرن العشرين ولا زال ، إذ سعت كثير من الدراسات الى محاولة اعادة النظر في منهجية كتابة التاريخ الادبي عربيا وعالميا ، وقد ادى هذا الاشكال الى بروز مشاريع جديدة ترمي الى وضع استراتيجية تهدف الى بناء تصور نقدي معاصر لكتابة تاريخ ادبي يغاير ما كُتب في المرحلة السابقة .

وقد شكل موضوع تاريخ الادب معلما بارزا في الثقافة العربية ، مما جعله محورا لكثير من الدراسين والباحثين ، وظاهرة مهمة اكسبته حضورا طاغيا ليس على مستوى الكتابة والتأليف فحسب ، بل حتى على مستوى الوعي واسئلة الهوية والمثاقفة ، فضلا عن قضايا النقد والنظرية الادبية ، محاولة هذه الطروحات وضع تساؤلات عدة حول التاريخ الادبي متمثلةً في ابراز الغاية المعرفية التي جعلت من درس تاريخ الادب محورا اساسيا ضمن النظرية الادبية ، لا سيما وان ((حقل الدراسات الادبية يمر برمته عبر سؤال التاريخ الادبي)) ([1]) كما ترى ايفا كوشنير المتخصصة في حقل التاريخ الادبي .

وتاريخ الادب - بمفهومه الحديث - علم نشأ وتطور في الثقافة الاوروبية واخذ مساره المعرفي بين علوم انسانية عدة واكتملت صورته في تلك الثقافة قبل ان يصل الينا عبر المستشرقين ، الذين حاولوا جاهدين دراسة الثقافة العربية وفق تصور خاص يعكس مرجعياتهم الفكرية والمعرفية ، مما ادى الى بروز ظاهرة التحيز في هذا الجانب ، لاسيما وان الاستشراق في جميع صوره واشكاله يمكن ان يوصف بانه ((ظاهرة تمخضت عن تحيزات ثقافية غربية تجاه العرب والمسلمين عموما))([2]) ، هذا التحيز الذي جعل بعض المفكرين العرب ينظرون اليه على انه محمل بتبعات ايديولوجية اكثر مما هو نتاج معرفي خالص مبني على الموضوعية العلمية .

من هنا فاننا لا نستطيع النظر الى مصنفات تاريخ الادب العربي - التي ابتدأت مع المد الاستشراقي - الا من خلال رؤية تجعلنا موقنين بوجود تحيزات رافقت عملية كتابة هذه المصنفات وصور تشكلها التي نشأت في اطارها منذ المرحلة الاولى ، ولهذا فان دراستنا تسعى - او تطمح - الى اكتشاف ومناقشة التحيزات القائمة وراء المنهج الذي رافق كتابة تاريخ الادب العربي من قبل المستشرقين ، ثم محاولة تتبع هذه التحيزات عند الجيل الاول من المؤرخين العرب للادب من خلال خطابهم المقدماتي لتلك المصنفات وعملهم الاجرائي، وصولا الى راهننا المعرفي الذي يستلزم منا اعادة النظر في كل المسلمات وبخاصة تلك المصنفات التي عكفنا على دراستها او تدريسنا لها في اروقة الجامعات العربية لقرن من الزمان .

* * *

**اولا : مفهوم التحيز :**

ورد التحيز لغة في لسان العرب : ((انحاز القوم تركوا مركزهم ومعركة قتالهم ومالوا الى موضع آخر . وتحوز عنه وتحيز اذا تنحى .. والحوز : الجمع . وكل من ضم شيئا الى نفسه من

مال او غير ذلك فقد حازه حوزا وحيازة .. وكل ناحية على حدة .. والحوزة الناحية )) ([٣]) ، والتحيز وفق هذا المعنى اللغوي هو حصر الشخص نفسه في حيز ومكان مسور بسور متميز عن غيره ، وهو المعنى الحسي للكلمة ، وهذا يعني ان مفردة التحيز جاءت في لغة العرب مرتبطة بالمكان ، اما استعمالها الشائع فهو استعمال مجازي حيث تستعمل عادة في المسائل الفكرية والمعنوية ، فيقال فلان متحيز لفلان ويقف معه ويدافع عنه ويتبناه ، وعلى ذلك فالتحيز له حقيقة في اللغة ومجاز في الاستعمال ([٤]) ، فالتحيز وفقا لذلك مفهوم معاصر اكتسب ((مضمونا معرفيا جديدا ، مما اضاف الى التحيز المكاني مدلول التحيز الفكري ، فاتسعت بذلك دائرة استخداماته الدلالية ، فصار يحرض في ذهن الجماعة اللغوية العربية مفهوم انحصار الرؤية في منظور مكاني او فكري ))([٥]) ، ولذلك فان الدلالة اللغوية لا تبتعد كثيرا عن دلالة التحيز الاصطلاحية ومفهومها الغربي الذي استقر فيما بعد .

ومن هنا عُرّف التحيز اصطلاحا بانه : (( اتجاه عقلي للحكم على الامور قبل الوقوف تماما على حقيقتها ، وذلك تحت تأثير التجارب السابقة او بعض العوامل الانفعالية الذاتية التي تسبب الخطأ في الحكم ، واما العينة المتحيزة فهي التي يتم تصميمها على نحو لا يجعلها ممثلة للمجتمع الاصلي الذي سحبت منه ، ويستخدم في هذا السياق ايضا مصطلح استجابة متحيزة ، وذلك للاشارة الى اجراءات البحث التي تدفع المبحوثين الى الادلاء بمعلومات غير صادقة ))([٦]) ، معنى هذا ان مصطلح التحيز مفهوم مبني على رأي ذاتي لا يستند على حقائق موضوعية ولا اسس علمية ، وهو في الوقت نفسه يتكئ على دلالة سلبية في الحكم على الامور إما بدافع الهوى ، او بدوافع فكرية (ايديولوجية) متأصلة في المرجعية المعرفية الجماعية ، نتيجته في محصلته النهائية هي انغلاق للذات ونفي للآخر .

وقد اخذ مفهوم التحيز ابعادا فكرية وفلسفية عدة ، إذ سعى كثير من الدارسين الى تأصيله وفهمه وما يضاده من مفهومات كالموضوعية العلمية ودلالاتها المعرفية التي تشي بمحاولة الخروج من اسر التحيز وتجاوزه ، الا انهم ذهبوا الى ان التحيز– كما يرى د. عبد الوهاب المسيري - واقع لا محالة وانه حتمي ، إذ ان التحيز مرتبط ببنية عقل الانسان ذاتها الذي لا يسجل تفاصيل الواقع كالآلة الصماء ، فضلا عن ان التحيز لصيق باللغة الانسانية وهذه اللغة ليست اداة محايدة مثل لغة الجبر والهندسة ، مما يعني ان التحيز من صميم المعطى الانساني ومرتبط بانسانية الانسان اي بوجوده ككائن وكل ما هو انساني يحوي على قدر من التفرد والذاتية ومن ثم التحيز([٧]) ، الا ان التحيز كمعطى انساني مرتبط بطبيعة التكوين البشري لا يعني ان وقوعه يشكل جانبا مقبولا ، بقدر ما يدل على وجوده ومرتبط بالذات الانسانية سواء تمثلت في الفرد ام في الجماعة ، وان كشفه ومن ثم تجاوزه مطلب معرفي لازم .

ويُعدَّ الخطاب ما بعد الاستعماري من ابرز التوجهات في مسار الكشف عن التحيز ، فالفوارق الحضارية والتصورات الماقبلية في قراءة الثقافات الاخرى تعد في طليعة المسائل التي تهم الناقد ما بعد الاستعماري ، إذ عنيت دراسات الكشف عن التحيز بالجوانب المتعلقة بالفروق المعرفية في السياقات الحضارية التي انعكست على العلوم او حقول المعرفة المختلفة

وما فيها من مفاهيم ومناهج ، وقد عني بهذه الجوانب بعض الباحثين العرب المعاصرين فتوقفوا عند المشكلات الناجمة عن تبني مناهج ذات فرضيات محددة تعكس خصوصية حضارية او ظروفا تاريخية معينة وتؤثر من ثم في نتائج البحث في حقل من الحقول([٨]) ، لاسيما وان نقد دراسات المستشرقين في كتابتهم لتاريخ الادب العربي يقع ضمن هذه المنطقة التي اسست لمنحى فكري صبغ تخصص تاريخ الادب منذ المراحل الاولى وحتى يومنا هذا بطابع خاص لم تستطع المؤسسات العلمية والاكاديمية ان تتخطاه متمثلا في اساس التحقيب الذي قسم الادب العربي الى جاهلي واسلامي وعباسي ... وصولا الى العصر الحديث ، مما جعل هذا المنهج يحظى عند الكثيرين بالقداسة التي لا يجوز الخروج عنها ، او بالقسمة التي ارتضيناها لتراثنا الادبي .

واذا علمنا ان لكل ثقافة بعدا معرفيا ثاويا فيها ، وان كل فكر يستبطن جذورا شكلت اساس ذلك الفكر وتلك الثقافة ، فان ما جاء به الاستشراق من منهج تحقيبي لادبنا العربي ، انما استلهمه من تلك المرجعيات التي شكلت الجوهر الاساس لمنطلقاته الفكرية والفلسفية التي جاءت محملة بالتحيزات العاكسة لتلك الثقافة .

فمنذ نهاية القرن الثامن عشر ومع انتشار الانسان الغربي في العالم من خلال التشكيل الاستعماري الغربي ، وقيامه بتدويل نماذجه الحضارية والمعرفية ، بدأت مرحلة جديدة تسعى الى فرض نموذج محدد على شعوب العالم ، اذ سعت المؤسسات الاستشراقية الى تحييدنا في نشاطنا العلمي وفرض رؤية وتصور محدد لكثير من القضايا والعلوم الانسانية ، محاولة الوصول الى جعل الآخر غير الغربي يتخلى عن تحيزاته النابعة من واقعه التاريخي والانساني والوجودي ، ليتبنى تحيزات الاخر بما في ذلك تحيزاته ضده وليبدأ ينظر لنفسه من وجهة نظره([٩]) ، مما جعل الكشف عن التحيز ومحاولة ادراك مستوياته الكامنة في النصوص المعرفية - وبخاصة في مرجعيات المستشرقين ومن تبعهم من المؤرخين في كتابة تاريخ الادب العربي - ضرورة ملحة تسهم في مراجعة مسلماتنا الفكرية وتدعونا في الوقت نفسه الى اعادة النظر في تلك النصوص بعيدا عن هيمنة الانساق الغربية التي صبغت رؤيتنا لكثير من الخطابات الثقافية في نسيج ثقافتنا العربية .

* * *

**ثانيا / آليات التحيز عند المؤرخين العرب في كتابتهم لتاريخ الادب العربي .**

شكلت دراسات تاريخ الادب العربي وما كتب في هذا المجال منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى النصف الثاني من القرن العشرين ظاهرة لافتة للنظر في الثقافة العربية ، فقد صدرت العشرات من الدراسات في تاريخ الادب ، واهتمت الجامعات العربية والتعليم الثانوي في هذا الجانب تدريسا وبحثا ، فكتبت رسائل واطاريح جامعية كثيرة ، وأُلفت الكثير من المناهج الدراسية في تاريخ الادب ، مما جعل التأليف في تاريخ الادب يُعد ((من اشد الظواهر بروزا في انتاج العرب الفكري طيلة العصر الحديث ، ذلك ان التصانيف فيه قد بلغت من الكثرة حدا يعسر معه تسميتها جميعا ولما يمض على شروع المؤلفين العرب في التاريخ لادبهم وقت طويل))([١٠])

، وبسبب هذه الكثرة في مصنفات تاريخ الادب العربي اكتفى كارل بروكلمان بذكر قائمة تعد اربعة وعشرين مصنفا في تاريخ الادب منها اربعة عشر ظهرت حتى نهاية الربع الاول من القرن العشرين قائلا : لا نستطيع ان نسمي هنا الا بعض هذه الكتب ، وقد الف في زماننا هذا كثير من اهل مصر والشام والعراق كتبا في الاداب العربية ضئيلة القيمة يقصد اكثرها الى اغراض التعليم(١١) ، وفي هذا ما يدل على ان الكتابة في تاريخ الادب العربي قد اخذت انتشارا واسعا وحيزا كبيرا من الاهتمام في هذه المرحلة ، لاسيما وان ذلك ترافق مع المد الاستشراقي ومشروعهم في كتابة تاريخ الادب العربي .

وعلى الرغم مما بذله مؤرخو الادب العربي ، الا ان البحث العلمي الرصين يفرض علينا ان نضع مشروعاتهم القيمة والضخمة تلك في اطار سياقها التاريخي المحكوم بجملة من الضوابط العلمية والمعرفية والمهنية ومن ثم فهذا لا يمنع الباحثين اليوم في الموضوع من غربلة الانجازات الماضية ومتابعة الرحلة واستكمال المشروع باعادة النظر في المنظومة المعرفية والمرجعية والمفاهيمية والمصطلحية التي كتب بها تاريخ الادب العربي خصوصا بعد تقدم البحث في التراث الادبي والنقدي وظهور عدد لا يحصى من الاثار الادبية والنقدية المحققة تحقيقا علميا مما اتاح ملء الفراغات والفجوات التي كان يعاني منها هذا التراث والتي ظلت ردحا من الزمن بعيدة عن متناول التاريخ اما تهميشا لها او جهلا او تغاضيا عنها(١٢) ، خاصة وان كثيرا من تلك المصنفات التي كتبها هؤلاء المؤرخون لا يزال تأثيرها وسلطتها المدرسية قائمة حتى اليوم ، ثم ان بدايات التأليف في تاريخ الادب العربي لما كان على يد المستشرقين وما حملت من تحيزات معرفية عكست جوانب كبيرة من المركزية الاوروبية ، فان تأثر المؤرخين العرب في كتابتهم لتاريخ الادب العربي لم يكن بعيدا عن هذه الاشكالية التي صبغت الثقافة العربية بصورة عامة .

وهذا يعني ان كتابة تاريخ الادب العربي كانت واقعة ضمن عملية الانحياز للآخر مما عُدَّ اشكالية معرفية لم يستطع المؤرخ العربي الفكاك منها ، ومن هنا كان لا بد من غربلة ومراجعة لكل الكتابات التي اعتمدت الآخر منهجا ، تتم من خلال ذلك تجاوز التحيز في كل اشكاله ، وبغير ذلك فان ((التحيز يخلق عوائق امام نقل تلك الثقافة ومنتجاتها الى حيز ثقافي اخر دونما غربلة لبعض السمات الاساسية تخلصها من ذلك التحيز او الخصوصية او تقلل من معدلهما ... والثقافة في حال تحيزها متأصلة في جذورها بحيث ينبغي ارجاعها الى تلك الجذور وصولا الى فهم وتعامل افضل مع الثقافة))(١٣) ، وهذا ما يجعلنا ننظر الى المصنفات العربية الحديثة لتاريخ الادب على انها تعتمد المرجعية الغربية في منهجها واجراءاتها وتعكس تمركزا اوروبيا ونقلا وتأثرا مباشرين عن المؤسسة الاستشراقية ، وتحيزا مباشرا دون مراجعة او نقد .

ستكون مقاربتنا للتحيز في مصنفات تاريخ الادب على ثلاثة محاور ، الاول سيتخصص في كشف اشكال التحيز المفاهيمي عند المؤرخين العرب في مصنفاتهم لتاريخ الادب العربي المبنية على الانبهار بالآخر الغربي ، اما المحور الثاني فسيسعى الى كشف التحيز المنهجي المتمثل في التحقيب السياسي وتداعياته على الادب العربي ، وذلك من خلال ابراز التحيز في البدايات

المؤسسة لكتابات تاريخ الادب العربي عند المستشرقين والعرب عبر المنطلقات الفلسفية والفكرية ، اما المحور الثالث فسيكون في التحيز الاجرائي في كتاباتهم لتاريخ الادب العربي .

* * *

المحور الاول

التحيز المفاهيمي

تعد قضية المفاهيم وحدودها الاصطلاحية من الاشكاليات المعاصرة التي تواجه الباحث في العلوم الانسانية إذ (( ان عدم وضوح المفاهيم خطر كبير على استقامة الفكر ))([١٤]) ، ووضوحها يتوقف على الوعي بحدودها وتاريخيتها ، ليتم توظيفها والاشتغال بها ، بل وامكانية تجاوزها ، ولا يستقيم مثل هذا الوعي الا بمفاهيم واضحة ،([١٥]) لاسيما حين يتعلق الموضوع بمفهوم مركب مثل (تاريخ الادب) الذي ((يتميز بنوع من الابهام الاصلي الذي استمده من طبيعة تركيب مادته اللغوية والمصطلحية والمفهومية ، ومن التعالق المفترض في اصل المفهوم ايضا : فهناك التاريخ ، الادب ، وتاريخ الادب ، وللتعامل مع مثل هذا المفهوم لابد من افتراض التعقد في تكوينه وتكونه))([١٦]) ، فضلا عن اشتغالات هذا المصطلح بمفهومات خضعت لاجراءات معرفية كثيرة عربيا وغربيا .

وقد استحال مصطلح تاريخ الادب عند المؤرخين المحدثين (( اختيارا منهجيا وضرورة معرفية لموضعة الانتاجات الادبية في سياق تاريخي محدد ، ومن ثم نجدهم يضعون للادب الحقب والعصور ويترجمون للاعلام المشاهير ، وينتخبون النصوص التمثيلية لانتاجهم ، وربما راحوا يربطون كل هذه العمليات بحركة الثقافة العامة وبالجوانب الاجتماعية والسياسية والدينية والروحية ، التي من شأنها القاء الضوء على حركة الادب في سيرورته التاريخية في حقبة او مجموعة من الحقب))([١٧]) ، وهذا كله راجع الى تأثر المؤرخين العرب بما قدمه المستشرقون في وضع تصورات جديدة لتاريخ الادب العربي منذ القرن التاسع عشر ، والتي كانت تصورات قائمة اساسا على مرجعياتهم المعرفية وما وصلت اليه علومهم الانسانية والتطبيقية من نتائج ، ومن هنا تشكلت منظومة المفاهيم لتاريخ الادب العربي ومن ثم كانت تعريفاتهم لتاريخ الادب قائمة على هذا المفهوم .

فقد عرف جرجي زيدان تاريخ الادب بانه علم ((يبحث في الشعراء والادباء والعلماء والحكماء ، فيدخل فيه النظر في ما ظهر فيها من عقولهم في الكتب ، وكيف نشأ كل علم وارتقى وتفرع عملا بسنة النشوء والارتقاء))([١٨]) ، اما الزيات فقد عرف تاريخ الادب بانه ((وصف مسلسل مع الزمن لما دون في الكتب وسجل في الصحف ونقش في الاحجار تعبيرا عن عاطفة او فكرة او تعليما لعلم او فن او تخليدا لحادثة او واقعة فيدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكانتهم في الفن الذي تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعا او تأخرها))([١٩]) ، فمن خلال هذين التعريفين نرى ان مضمون تاريخ الادب لا يبتعد كثيرا عما دونه علماء العرب قديما في مصنفاتهم ، الا ان الفرق ان المصنفات الحديثة سعت الى سرد احداث تاريخ الادب في (وصفٍ مسلسل مع الزمن) حسب منهج التحقيب

السياسي وهو ما يظهر استفادة هذه المصنفات من تطور العلوم الانسانية كعلم التاريخ فضلا عن تأثرها بالنظريات العلمية كنظرية التطور وبخاصة في مسألة نشوء العلوم وارتقائها ، ولهذا فلم يكن هناك مبرر لان يسم المحدثون ما قدمه العرب في مجال تاريخ الادب بانهم لم يعرفوا هذا العلم ، فتاريخ الادب كان موجودا ولكن ليس على الصورة التي ارادها لنا المستشرقون كما دونوها في مصنفاتهم .

إذ يؤكد جرجي زيدان ان تاريخ آداب اللغة لم يكن معروفا ((عند الافرنج قبل نهضتهم الاخيرة في التمدن الحديث ..... ، اما العرب فالمشهور انهم لم يؤلفوا في تاريخ آداب لسانهم على الرغم من انهم عرفوا تآليف شبيهة بكتب تاريخ الادب كمثل التراجم والطبقات ، ولكنها لا يصح ان تسمى تاريخا لها بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم ، ولم يتصد احد للتأليف في تاريخها على النمط الحديث قبل الافرنج المستشرقين فهم اول من كتب فيه من اواسط القرن الماضي ، لكنهم لم يوفوه حقه الا في اول هذا القرن .... اما في العربية ، فلعلنا اول من فعل ذلك ، ونحن اول من سمى هذا العلم بهذا الاسم تاريخ آداب اللغة العربية))(٢٠) ، فعلم تاريخ الادب – حسب جرجي زيدان هو غربي النشأة ، وحين فطنوا اليه اسرعوا في التأليف وفتحوا الباب للعرب ، وهذا في الحقيقة تحيز وتجن من قبل زيدان تجاه جهود العرب وما قاموا به من انجازات في هذا المجال ، فعلى الرغم من اقرار جرجي زيدان بان العرب (عرفوا نوعا شبيها بتاريخ الادب) ، الا انه لا يتطابق مع هذا العلم كما وضعه الغربيون ، وهنا جرجي زيدان لا ينفي تحيزه لما قدمته الثقافة الغربية في هذا المجال ، فاشارته للتطابق او التماثل لما عند الآخر يجعل من العلوم ولكي تأخذ شرعيتها العلمية والمعرفية يجب ان تتطابق وتتماثل مع ما موجود في الثقافة الغربية .

إذ ان عملية التماثل والمقايسة تجعلنا ((حينما ننظر الى التصور الذي تحكم في نقل مفهوم تاريخ الادب عند جرجي زيدان وبالتالي التحقيب السياسي ، فاننا نجد تصور الفكر المقارن حاضرا في العملية التي اهتدى بها الى صياغة تصوره لتاريخ الادب العربي ..... ، فالمقايسة عند جرجي زيدان تصل الى حد المشابهة التي لم تكلفه سوى جعل النموذج الاوروبي اليوناني هو النموذج الاصل الجاهز الذي يجب قياس الادب العربي عليه ، ولهذا اتخذ من كتاب (دلتور) عن تاريخ الادب الاغريقي نموذجه الاول الذي صاغ عليه نموذجه لتاريخ الادب العربي ... ، واعتماده على النموذج الاوروبي اليوناني في تاريخ الادب هو الذي جعله يعطي لمفهوم تاريخ الادب العربي مفهوما تاريخيا يعتمد في تقسيمه على اساس المراحل السياسية او العصور السياسية ))([٢١]) ، ولهذا السبب جاء حكم جرجي زيدان بنفي التأليف عن العرب في مجال تاريخ الادب بمجرد ان منهجهم التحقيبي في الحقيقة لم يكن موجودا في خطتهم ولم يهتدوا الى تقسيم الادب الى العصور السياسية ، الا ان الواقع المعرفي للعرب يشهد ان العرب لم يضعوا فقط تراجم وطبقات بقدر ما حاولوا جاهدين توثيق الادب العربي ولكن بآلية ومنهج يختلف عما قدمه الغربيون ، وبتسميات غير ما سمي به هذا العلم بـ(تاريخ آداب اللغة العربية) ، صحيح ان

المنهج التأليفي عندهم لم يكن بالمستوى الذي عليه في المرحلة الحاضرة الا انهم استطاعوا ان يقدموا لنا ما يعكس حرصهم على توثيق الادب العربي وضمن سياق مرحلتهم التي عاشوا فيها .

ثم ان الغرب لم يعرفوا هذا العلم - وباقرار جرجي زيدان نفسه - وان العرب كانوا اسبق الامم الى توثيق ادبهم ، ولهذا كان الاولى ان تتوجه الجهود نحو الثقافة العربية في محاولة للاستفادة من تجربتهم والسعي ايضا للانفتاح نحو الثقافة الغربية والاستفادة مما قدموه ، الا ان جرجي زيدان وهو المتشبع بالثقافة الغربية لم يكن لديه خيار سوى التوجه نحو الآخر والتحيز له ومحاولة الاقلال من الثقافة العربية لسبب بسيط وهو تبنيه للمنهج التحقيبي ، وبهذا يتحدد مشروعه في تاريخ الادب العربي .

وهنا لابد ان نؤشر ثلاث قضايا اساسية :

**القضية الاولى** / ان العرب لم يكونوا بعيدين عن توثيق تاريخ ادبهم وكتابته ، صحيح انهم لم يعوا تاريخ الادب بمفهومه الحديث بشكل كبير الا ان مصنفاتهم ربما كانت او كادت تقترب من هذا المفهوم ، وبخاصة فيما اطلق عليه الطبقات والتراجم ، فضلا عن ذلك فهناك كتب ذكرها جرجي زيدان نفسه اعتمدها في مادته التاريخية للادب العربي منها كتاب الفهرست لابن النديم الذي اشتمل على آداب اللغة العربية من اول عهدها الى عصر المؤلف مرتبة حسب الموضوعات ، ولم يقتصر على آداب العرب الاصلية لكنه تضمن ما احدثوه من العلوم الاسلامية واللسانية او ما نقلوه عن الاداب الاخرى ولولاه لضاعت اسماء كثير من الكتب النفيسة ، ومنها ايضا كتاب مفتاح السعادة ومصباح السيادة الذي يعرف بـ(موضوعات العلوم) لطاشكبري زاده رتبه حسب الموضوعات وذكر فيه ١٥٠ فنا ، وكتاب كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون لملا كاتب جلبي وهو معجم مرتب على الحروف الابجدية حسب اسماء الكتب وبلغ ما حواه منها نحو ١٥٠,٠٠٠ كتابا مع اسماء اصحابها ووفياتهم وتواريخ اهم العلوم ، وكتاب ابجد العلوم لصديق القنوجي وهو كتاب ضخم عول فيه صاحبه على من تقدمه ورتبه على الموضوعات ([٢٢]) ، وغيرها كثير ، فمادة تاريخ الادب – اذن – كانت حاضرة في الثقافة العربية على امتدادها التاريخي ، وان لم تكن بالصورة التي عليها في المناهج الحديثة ، الا ان نفيها وتجريد ثقافتا العربية منها لا يعد الا تجنيا على هذه الثقافة وتحيزا للآخر الغربي .

وعلى الرغم من اقرار المتخصص في تاريخ الادب د. احمد بو حسن الى انه لا وجود لمصطلح تاريخ الادب بمفهومه الجديد قبل الممارسات الاولى في القرن التاسع عشر ، الا ان التاليف في الادب وتاريخه كان فعلا ونشاطا موجودا بتصوره العربي القديم ، إذ دلل بو حسن على رأيه باعتماده انموذجا عربيا قديما ، متجسدا في كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني ، اذ يمثل حسبه كتابا ((استوعب مختلف الموضوعات التي كان يدور حولها تاريخ الادب العربي القديم ، فضلا كونه اسس لكتابة تاريخ الادب العربي الذي كان له تأثيره قديما واتخذ نموذجا لذلك في العصر الحديث منذ القرن التاسع عشر ، انه كتاب يفتح المجال امامنا لاعادة النظر في مفهومنا لتاريخنا الادبي العربي ويلامس في عمقه مجال الدراسات الثقافية ... وبهذا المنظور نرى بان الاغاني يفتح آفاقا اخرى نحو كتابة تاريخ ادبي عربي جديد يلامس في النهاية مجال

الدراسات الثقافية ))([٢٣]) ، وهذا ما يؤكد ان العرب لم يكونوا غافلين عن هذا العلم بقدر ما كانت منهجيتهم في كتابة تاريخ الادب قائمة على اسس عربية اصيلة غير متأثرة بمرجعيات اخرى .

**القضية الثانية** / اذا كان المستشرقون - الذين كتبوا في تاريخ الادب العربي - والمؤرخون العرب من بعدهم ، يقصدون من الصورة الجديدة لتاريخ الادب هو منهجية التحقيب السياسي وتقسيم الادب الى عصور ومراحل ، فان العرب القدامى وان لم يصلوا الى ما وصل اليه الغربيون في هذا المجال بحكم التطور في العلوم الانسانية ، فان العرب لم يكونوا – ايضا - غافلين عن هذه القضية على قدر زمانهم ومرحلتهم ، ورد في كتاب الاغاني لابي فرج الاصفهاني : ((... اقرئ ابا عبيدة السلام وقل له : يقول لك ابن مناذر ، اتق الله واحكم بين شعري وشعر عدي بن زيد ، ولا تقل ذلك جاهلي ، وهذا اسلامي ، وذاك قديم وهذا محدث فتحكم بين العصرين ...))([٢٤]) ، وجاء في الموازنة للآمدي قوله عن ثقافة ابي تمام : ((ما فاته كبير شيء من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث الا قرأه وطالع فيه))([٢٥]) ، وهذا ما يؤكد ان منهج التقسيم الى مراحل وحقب وعصور لم يغب عن المؤرخين العرب القدامى ، ولكن لم يفهموا هذا المنهج كما فهمه الغربيون والمستشرقون والعرب المحدثون فقسموا من خلاله الادب ، ولم يربطوه بالسياسة كما ربطه المحدثون بذلك مستفيدين مما افرزته العلوم الانسانية من تطور .

**القضية الثالثة** / عند مقارنة جهود العرب القدامى فيما قدموه من مصنفات في تاريخ الادب مع ما صنفه الرواد الغربيون في هذا المجال وبالاخص في الدراسات الاولى لتاريخ الادب العربي سنجد انها جهود لا يسطيع احد ان يقلل من قيمتها ككتاب الاغاني – كما تقدم - وكتاب (الفهرست) لابن النديم الذي يُعدَّ من المحاولات المنهجية القديمة التي لمست بعض ملامح مفهوم تاريخ الادب ، اذا ما قُورن بما وصل اليه روبير اسكاربيت في بحثه عن تاريخ الادب الفرنسي ، إذ عدَّ ان المحاولة الاولى لتاريخ الادب ترجع الى الشاعر كليماك دو سيرين الذي وضع مسردا مبينا للكتّاب ومؤلفاتهم ، وقد قسمه الى مائة وعشرين كتابا ، تؤلف في مجموعها كتابا تعريفيا ، وفي نفس الوقت كتابا نقديا وترتيبا ، ويعتبر هذا الكتاب اول محاولة منهجية لتاريخ الادب في نظر اسكاربيت([٢٦]) ، وهذا المنهج قريب جدا من منهج ابن النديم في الفهرست القائم على البيبلوغرافيا الزمنية ، فضلا عن ذلك فان اسكاربيت نفسه اقر بان العرب لهم من هذا السبق في تاريخ الادب ، وانه ((ليس من المنطق في شيء ان نزعم ان تاريخ الادب لا سوابق له في الماضي بحجة عدم وجود المصطلحات الدالة عليه .....، وجدت البيبلوغرافيا الزمنية التي بقيت حتى في عصرنا هذا من اهم الوسائل التي يعتمد عليها مؤرخ الادب .... وفي القرن الثالث عشر ، تحدث ابن خلكان بلوتارك الاسلام (اديب من العصر الكلاسيكي) حياة العديد من الكتاب العرب ، وفي الوقت نفسه تقريبا اطلعنا على جانب هام من ادب القرون الوسطى بفضل كتاب اوك دي سبانت حياة التروبادور))([٢٧]) ، وهذا ما يجلعنا نذهب الى ان المؤرخين العرب القدامى لم يكونوا بعيدين عما قدمته الامم الاخرى لثقافاتهم إن لم يكونوا قد سبقوهم ، وان ما جاءوا به من مفهوم لتاريخ الادب انما كان انعكاسا لذلك الواقع المعرفي وما حمل من دلالات لهذا المفهوم

، غير متأثرين ولا متحيزين للآخر ، كما وجدنا ذلك عند المحدثين من المؤرخين العرب الذين كان خطابهم الثقافي في تنظيرهم لمفهوم تاريخ الادب مشبعا بتحيزهم وتوجههم نحو الآخر الغربي فيما قدموه من مفهومات في هذا الاطار .

* * * * *

المحور الثاني

التحيز المنهجي

اذا علمنا ان المؤلفات العربية في تاريخ الادب العربي قد تأثرت بما انتجه المستشرقون وبما استفادوا منه في قراءاتهم للمصنفات الغربية في هذا المجال ، فان اغلب هذه المؤلفات (العربية) لا تكاد تخرج عن التقسيم الزمني الى عصور منذ الجاهلية وحتى العصر الحديث ، وهو المنهج الغالب في الدراسات الاكاديمية ومناهج التعليم .

وهذا المنهج قد وقعت فيه تحيزات كثيرة تتمثل في اعتماده التحقيب السياسي منهجا في دراسة الادب العربي عبر عملية النقل من الآخر بتعديل او مراجعة او دونها ، الا انها وقعت في تحيزات اخرى لا تقل اشكالية ، وسنعرض بعض النماذج التي كتبت في تاريخ الادب العربي تكون امثلة اختيارية نجري عليها تحليلا وكشفا لاشكال التحيز للمنهج التحقيبي الغربي التي وقعت فيه .

لا يخفى على الدارسين الاثر الكبير الذي تركه المستشرقون في كتابات العرب لتاريخ الادب العربي ، حيث اثرت منهجيتهم في الرواد الاوائل ومن جاء بعدهم ، فـ((الاستشراق ظل يحتفظ بثقافته الغربية حتى وهو يفتتن بثقافة الشرق وتجاوز ذلك الى نقل ذلك الافتتان بالمنهجية الى رواد النهضة العربية امثال جرجي زيدان واحمد امين وطه حسين وغيرهم من الليبراليين والاصلاحيين))(٢٨) ، فالاستشراق - كما نعلم - حركة معرفية سعت الى دراسة الآخر في كل ما يتعلق بالشرق من تركيبته اللغوية والدينية والجغرافية والتاريخية والادبية ، والمستشرقون قبل كل شيء انما كانوا ينطلقون في كتاباتهم لتاريخ الادب العربي من منطلقات فكرية وفلسفية تعكس ثقافتهم والبيئة التي نشأوا فيها ، مما يجعل نتاجاتهم وكل ما صدر عنهم انما يحمل طابعا تحيزيا يضمر المرجعية التي اسسوا من خلالها منهجهم لدراسة هذا الشرق.

فالخطاب الاستشراقي ليس فعلا مجردا عن مضامينه الغربية ، وهو ليس فعل افراد دفعهم حب المعرفة لجعل الشرق موضوعا غربيا ، انما هو ضرب من الممارسة الفكرية اقتضتها حاجة العقل الغربي ، لان يشمل بكليته المعطيات الثقافية للآخر واعادة انتاجها بما يجعلها تندرج ضمن سياقات المركز وهو يفكر ويتفكر في شؤونه وشؤون غيره (٢٩) ، مما نتج عن هذا ان المشروعات الحضارية العربية الحديثة - رغم تنوعها واختلافها وتصارعها – ((جعلت الغرب نقطة مرجعية نهائية ومطلقة تحاول كل المجتمعات الوصول اليه ، وثمة طريقة واحدة لادارة المجتمعات ولتحديد تطلعات البشر واحلامهم وسلوكهم ، ومن ثم تحول الغرب من بقعة جغرافية وتشكيل حضاري له خصوصيته ومفاهيمه الى البقعة التي يخرج منها الفكر العالمي والانساني الحديث ، وقد اضفى هذا شرعية هائلة على عملية اللحاق باوروبا))(٣٠) ، وبذلك اضحت كل

العلوم الانسانية – حتى يكتب لها القبول وتكون موضوعية وذات صبغة علمية – متجهة صوب الآخر الغربي ، مستمدة منه الطريقة والآلية الصحيحة – حسب الآخر – لدراسة مضامينها وترتيب ما تبعثر خلال رحلتها الزمنية الطويلة .

وقبل ان نعرض لتحيزات المؤرخين العرب للمستشرقين في كتابة تاريخ الادب لابد ان نبدأ بما قدمه المستشرقون وبخاصة كارل بروكلمان لنرى مدى التأثر الذي وقع فيه العرب ، ومن خلال ذلك نستطيع ان نكشف التحيزات التي تجلت في كتاباتهم .

تشير البدايات الاولى لكتابة تاريخ الادب العربي الى المستشرقين تحديدا ، إذ ان أول مؤلف يحمل عنوان(تاريخ الأدب العربي) كان في عام ١٨٥٠م للمستشرق النمساوي هامر بورجستال ، ثم ظهر كتاب ألفريد فون كريمر سنة ١٨٧٧م ، ثم الإنجليزي أربتونت عام ١٨٩٠م ، ثم كتاب (تاريخ العرب وآدابهم) ، لمؤلفه ادوردفانديك وفيليبياس قسطنطين عام ١٨٩٢ ، والألماني كارل بروكلمان عام ١٨٩٨م في كتابه (تاريخ الادب العربي)(٣١) ، ثم ظهرت مؤلفات أخرى في تاريخ الأدب العربي في النصف الأول من القرن العشرين لكل من نيكلسون، وبلاشير ونالينو... وغيرهم.

ويعد كتاب كارل بروكلمان (تاريخ الادب العربي) احد ابرز المصنفات التي كتبت في تاريخ الادب العربي بصورة عمل بيبليوغرافي فهرسي موسوعي ، فقد صدر جزؤه الاول اواخر القرن التاسع عشر ، ومنذ ظهور هذه الموسوعة اخذت الدراسات في تاريخ الادب العربي تصدر متأثرة بما انتهجه بروكلمان مسارا في هذا العمل .

قسّم بروكلمان كتابه الى قسمين كبيرين، الأول هو: أدب الأمة العربية من أوليته إلى سقوط الدولة الأموية ، وحوى هذا القسم مجموعة من الأبواب هي : الأدب العربي الجاهلي ، عصر الرسول والخلفاء الراشدين، عصر الأمويين ، عصور الأدب الإسلامي العربي ، أما القسم الثاني فقد حمل عنوان عصور الأدب الإسلامي العربي ، مقسما ابوابه الى : عصر ازدهار الأدب أيام العباسيين في العراق من ٧٥٠ الى ١٠٠٠م ، عصر الازدهار الثاني من سنة ١٠٠٠ حتى سقوط بغداد سنة ١٢٥٨ ، ثم الأدب العربي خلال عصور سيادة المغول والترك إلى الفتح العثماني لمصر سنة ١٥١٧ ، والأدب العربي في العصر التركي إلى منتصف القرن التاسع عشر ، ثم أدب النهضة والعصر الحديث .

من خلال تقسيم بروكلمان لكتابه يتضح منهجه في دراسة الادب العربي عبر مسارين :

**الاول** : ان بروكلمان سعى الى دراسة الادب العربي من خلال كل ما انتجته الثقافة العربية ، من شعر او نثر سواء كان موضوعه في الادب ام في العلوم الانسانية .

**الثاني** : حاول دراسة تاريخ الادب العربي من خلال القسمة السياسية الى عصور ، متأثرا بما وضعه اندري دوشيسن في كتابه (تاريخ فرنسا الادبي) الصادر في سنة ١٧٣٣م ، الذي رأى ان النصوص الادبية الراقية هي عصور الادب الراقية ، وعصور تاريخ السياسة المنحطة هي عصور الادب المنحطة ، ولذلك فان حدود عصور التاريخ السياسي هي حدود عصور التاريخ الادبي([٣٢]) ، اما نالينو فقد اعتمد هذا التقسيم مع اختلافات بسيطة ، فقد قسم الادب العربي الى

ستة عصور : العصر الجاهلي ، والعصر الاسلامي ، والعصر العباسي ، وعصر الانحطاط ، وعصر النهضة الاخيرة([٣٣]) ، في حين نجد ان هاملتون جب سعى الى اعطاء كل عصر من هذه العصور اسما مميزا : العصر البطولي ، عصر الغزوات ، العصر الذهبي ، العصر الفضي ، العصر المملوكي([٣٤]) ، بهذا المنهج الذي اختطه بروكلمان ومن تبعه من المستشرقين في تاريخ الادب العربي سيكون هو القسمة التي لازمت كثيرا من الدارسين المستشرقين والعرب ، وبهذا المنهج كانت ولا زالت نظرتنا للادب العربي مقترنة بهذا الارتباط مع السياسة وقسمة العصور ، ولم يختلف من جاء بعد بروكلمان الا في تحديد العصور او اثبات بعضها او نفي الاخرى منذ الجاهلية وحتى العصر الحديث .

الرواد .. والتحيز للمنهج التحقيبي :

كانت البداية الحقيقية في التأليف لتاريخ الادب العربي لحسن توفيق العدل في كتابه (تاريخ ادب اللغة العربية) ، وذلك حين عودته من المانيا بعدما اتقن لغتها واطلع على مناهج البحث الأدبي هناك، وعلى جهود مستشرقي الألمان في تاريخ الأدب العربي نفسه وبخاصة كتاب بروكلمان فـ((في سنة ١٨٩٨ م عهدت دراسة هذا الفن بدار العلوم الى المرحوم حسن توفيق العدل نفسه، ولعل ذلك كان أمرا طبيعيا ليحقق تلك الصورة التي تصورها لتاريخ أدب اللغة العربية، والتي عرفها عند مستشرقي الألمان -وأخصهم فيما يظهر بروكلمان- فوضع كتابا حسن الترتيب، منوع البحوث، أدخل في باب التاريخ الأدبي، انتهى فيه إلى آخر العصر الأموي، وقد طبع هذا الكتاب الموجز عدة مرات بمطبعة الصنائع، وتاريخ الطبعة الأخيرة سنة ١٩٠٦ م ))([٣٥]) .

اما الدراسة الثانية فهي لاحمد الاسكندري ، إذ انه كتب مذكرات لطلاب الثانوية جمعها في كتاب مدرسي في بداية القرن العشرين ، ثم اشترك مع مصطفى عناني سنة ١٩١٦ ليؤلفا كتاب (الوسيط في الادب العربي وتاريخه) الذي صدر في طبعته الاولى سنة ١٩١٩م ، والذي اعتمدته وزارة المعارف في مصر لتدريسه في مدارسها([٣٦]) ، وقد كانت الدراسة الثالثة للاستاذ محمد حسن نائل المرصفي في كتابه (ادب اللغة العربية)([٣٧]) ، اما كتاب احمد حسن الزيات (تاريخ الادب العربي) فقد كان اكثر منهجية واعمق استيعابا ، واوسع دراسة من المؤلفات السابقة ، وان كان صدروه جاء متأخرا عنهم إذ صدر سنة ١٩٢٥ م ، الا انه سلك مسلكهم في آلية تقسيم العصور ، معتمدا التحقيب السياسي منهجا( [٣٨]) ، وهو ما انتهجه جرجي زيدان الذي يعد ابرز من بدأ بالكتابة في تاريخ الادب العربي ، واليه تُعزى البداية المنهجية الحقيقية التي تبنت المنهج التحقيبي في دراسات تاريخ الادب العربي ، وذلك في كتابه (تاريخ آداب اللغة العربية) ، وما نشره قبل ذلك في مجلة الهلال سنة سنة ١٨٩٤ م من مقالات ، وفي جميع هذه الاصدارات نلمس القسمة السياسية وتبعيتها للمنهج الغربي في دراسة الادب وتأثر المؤرخ العربي بما قدمه الاستشراق الالماني وبخاصة بروكلمان ، وهذه الكتابات تشكل البذرة الاولى لما كتبه العرب في تاريخ الادب العربي ، فضلا عن كونها كتابات حاولت ان تنهج طريقا يقتفي اثره كل من سعى ان يؤلف او يكتب في هذا المجال .

ومن خلال قراءة لهذه الدراسات الاولى لتاريخ الادب العربي ، نرى ان جميعها كانت متحيزة لمنهج الغربيين في دراسة الادب وبخاصة فيما قدمه المستشرقون ، اذ انهم ساروا على خطاهم في تقسيم العصور الا في اختلافات جزئية بسيطة ، مثلهم الاعلى في التقسيم بروكلمان ، ومما يلاحظ كذلك ان ما كتبه هؤلاء الرواد لم يكن يشكل دراسات متعمقة في تاريخ الادب العربي ، بقدر ما كانت كتابات توثيقية للادب العربي مقسمةً هذا الادب الى عصور ، محاولةً لتقديم مؤلفات مدرسية لطلبة المدارس والجامعات لا اكثر باستثناء كتاب جرجي زيدان .

واذا كان المستشرقون قد انتهجوا - كما مرّ - منهجا يقوم على ربط الادب بالسياسة ، محاولين تطبيق المنهج التحقيبي سبيلا لكتابة تاريخ الادب العربي ، فان جرجي زيدان قد آمن بهذا المنهج وظهرت تحيزاته له من خلال ما كتبه في مقدمة كتابه إذ قال : ((اما نحن فقد نهجنا في تقسيم كتابنا منهجا جديدا مبنيا على تقلب الاحوال السياسية والاجتماعية .... ، ولا نعرف احدا فعل ذلك قبلنا ...)) (٣٩) ، ولنفي تهمة التحيز والسير على خطى المستشرقين حاول زيدان تبرير ذلك بان عدّ ما سار عليه في كتابه منهجا جديدا لم يسبقه احد من العرب ، اما ما عداهم فقد سعى هو الى تأكيد مخالفته لمنهج المستشرقين وبخاصة بروكلمان ، ((فهذا التقسيم وان كان الاستاذ بروكلمن انتهجه في كتابه ، لكننا خالفناه في طريقته بحيث اصبح اكثره خاصا بكتابنا ، وكل ما فيه من الآراء ان لم ننسبه الى صاحبه فهو لنا ونحن المسؤولون عما فيه من صواب او خطأ)) (٤٠) ، واذا كان الاساس في الكتاب هو المنهج التحقيبي الذي سار عليه كل من بروكلمان وجرجي زيدان فان ما عدا ذلك سيكون بلا شك مختلفا نظرا لعملية الجمع والتبويب والاستشهاد لمادة الادب العربي وهذه المسألة بلا منازع ستختلف من مؤرخ الى آخر ، ولكن زيدان على وعي بان عمله سيكون بلا ادنى شك سائرا على خطى بروكلمان ولهذا اراد ان ينفي بدايةً هذه التهمة .

وفي الحقيقة ان جرجي زيدان لم يستفد فقط من بروكلمان بل حاول ان يطلع على منجزات المستشرقين في هذا الجانب ، (( ان تقسيم جرجي زيدان كتابه الى ثمانية عصور كان رائده في ذلك مجموعة من المستشرقين مثل جوزيف هامر بروجستال والريد فون كريمر وآرتبنت وادورد فانديك وفيليديس قسطنطين .... ويبقى الاثر الكبير راجعا الى بروكلمان والى كتابه العظيم تاريخ الادب العربي ))(٤١) ، وهذا ما يؤكد ان منهج التحقيب السياسي منهج استشراقي غربي تم عبر عملية نقل مباشرة من المستشرقين ومن جاء بعدهم من الذين تبنوا المنهج التحقيبي المرتبط بصورة مباشرة بالتقسيمات المبنية على التغيرات السياسية ، على الصورة التي نجدها في جميع مصادر تاريخ الادب العربي وبخاصة المناهج الدراسية في الجامعات العربية حتى اللحظة الراهنة ، وقد كان لهذا المنهج آثار سلبية صبغت تاريخ ادبنا العربي ، بما له من انعكاسات فكرية قائمة على مرجعيات واسس فلسفية بُني عليه هذا المنهج المستورد الذي يعكس بيئة وحضارة وثقافة الآخر ليكون منهجا اكاديميا ودراسيا مقدسا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولكي تتضح لنا صورة التحيز كاملة في المنهج التحقيبي فانه لابد لنا من تتبعٍ لمنهجية كتابة التاريخ في الثقافة الغربية ، فنتيجة للتطور الذي حدث في هذه الثقافة على مستوى الدراسات الانسانية في القرون التي رافقت النهضة الحديثة في اوربا ، فقد سعى المؤرخون الغربيون الى تأطير الماضي بتنظيم احداثه وترتيب اقسامه من خلال التحقيب ، والحقبة * كما يعرفها عبدالله العروي : ((مدة زمانية فاصلة بين تاريخين منسوبين الى تقويم محدد ، مرتبطة بمستوى معين من الفعالية البشرية ، الفن ، او السياسة ، او الانتاج المادي ، او الادب))([٤٢]) ، نتيجة ذلك برز منهج جديد في كتابة التاريخ تمثل في (التحقيب الثلاثي) ، اذ ان اول من تبناه الالماني كريستوف كللر في عام ١٦٨٥ ضمن كتابه (تاريخ العصر الوسيط) فشكل هذا الكتاب النواة الاولى لظهور فكرة التحقيب الثلاثي الذي قُسم بموجبه التاريخ الاوروبي الى ثلاث حقب رئيسة هي : التاريخ القديم ، والتاريخ الوسيط ، ثم التاريخ الحديث(٤٣) ، وقد قسم المؤرخون التحقيب الى انواع منها : التحقيب بالحوادث الذي يعتمد جملة من الحوادث الكبرى البارزة في التاريخ وهو التحقيب المعتمد في التاريخ الاوروبي ، والتحقيب بالظواهر الذي يعتمد الظواهر الاجتماعية والاقتصادية وهو ما مثل التحقيب الماركسي، والتحقيب بالاجيال والسلالات وهو ما طبقه المؤرخون الغربيون ومن مثلهم من المستشرقين على تاريخنا العربي(٤٤) ، وفقا لهذا المنهج التحقيبي قرأ المؤرخون الغربيون تاريخهم وتاريخ ادبهم ، ففي مجال تاريخ الادب تشير الدراسات الى ان اول كتاب صدر في تاريخ الادب في الثقافة الغربية كان في بداية نهضتها الاخيرة ممثلا في كتاب اندري دوشيسين (تاريخ فرنسا الادبي) عام ١٧٣٣م ، ومعظم المؤرخين ياخذون بطريقة التقسيم الزمني عن هذا الكتاب (٤٥) ، وهذا الكتاب شكل نواة لدراسات صدرت في تاريخ الادب في الثقافة الغربية .

ولكن السؤال : كيف قرأ المستشرقون تاريخ الادب العربي وعلى اي منهج من التحقيب اعتمدوا ؟

في الحقيقة ان المستشرقين حاولوا ان يلفقوا منهجا تجميعيا من اقسام التحقيب ، حيث انهم سعوا الى ان يكتبوا تاريخا للادب العربي وفقا للتحقيب بالحوادث والتحقيب بالسلالات ، إذ انهم لم يتبنوا تقسيما واحدا من التحقيب ، ولهذا السبب وجدنا انهم يختلفون كثيرا في الاتفاق على تقسيمات واحدة في العصور الادبية مما اوقع بعضهم في تناقضات كثيرة بشأن الحدود الفاصلة بين العصور او في عدد العصور التي درسوها او حتى في الحوادث التي اعتمدوها تاريخا يبتدئون بها للعصور او ينتهون بها ، وهذا كله يؤكد حالة التحيز التي كانوا ينطلقون منها في كتاباتهم لتاريخ الادب العربي ، اذ ان فكرة التحقيب في حد ذاتها مبنية على تحيز من ثلاثة جوانب : في مفهومه وفي تطبيقه منهجا وفي نتائجه .

فمفهوم التحقيب - اذا ما تجاوزنا مفهومه الشكلي الذي يُبنى على تقسيم التاريخ لمراحل زمنية متعددة - فانه مفهوم فكري يعكس رؤية الذين يتخذونه منهجا ، إذ انه ((متغير بتغير الفاعلين ، فهو بذلك يعبر عن رؤيتهم للزمن وعن نظرتهم الى الكون في لحظة تشكله ، ومن هذه الزاوية بالذات تكتسب مسألة التحقيب اهميتها بوصفها موضوع تفكير ، ... ان التحقيب

تصنيف يكشف عن تمثلات الفاعلين في زمن معين .... ، وله رهانات متغيرة من خلال استعمالاته المختلفة في الزمان والمكان ، اذ هو في النهاية لا يغدو ان يكون اكثر من تصنيف تفضيلي تارة وتحقيري تارة اخرى ، يعتمد عليه الفاعلون الاجتماعيون في اطار علاقات اجتماعية محددة ، بحيث يكون هذا التحقيب مبررا لها او عنصرا اساسيا في تبريرها واعادة انتاجها ، بحيث يصبح التحقيب مهما كانت طبيعته مدخلا اساسيا للنفاذ الى الواقع الاجتماعي في لحظة معينة لفهمه ودراسته ، .... لذلك لم يكن التحقيب عملية تقنية ومهنية بحتة ، بل مارس الفاعلون الاجتماعيون هذه العملية منذ ان اصبحوا واعين بالزمن وبمتغيراته))(٤٦) ، وهذا ما يؤكد ان منهج التحقيب الاوروبي للتاريخ العام وللادب بصورة خاصة انما كان له تأثير كبير في اعادة كتابة هذا التاريخ وفق ما تمليه المركزية الغربية وما تفرضه من توجهات فكرية تطال المادة التاريخية نفسها .

ذلك ان العملية التحقيبية انما ارتكزت اساسا ((الى الخطاب الكولونيالي الذي يملك القوة والفعل ويبلور تصوره للممارسات التي يفرضها على الآخر الواقع تحت الاحتلال ، وهذا التصور تصبح له وظيفة ثنائية ، فهو من ناحية يبرر فعل الغزو ، ومن ناحية اخرى يبني التصور عن ذاته التي تملك فعل التغيير واظهار لحظة قدومه كحل عملي لمشكلة طال امدها ، وعلى هذا النحو يصبح التحقيب الكولونيالي جزءا من ممارسة خطابية تستهدف التبرير والدعاية في آن واحد لاسطورة التحول عبر سحب الاضواء وتركيز العدسة المجهرية في فعل الغزو كـ(حدث استثنائي) يملك من القوة والتأثير ما يكفل إحداث نقلة نوعية في تاريخ الشعوب التي قهرها))(٤٧) ، ونجد مصداق ذلك في قراءات المستشرقين لتاريخنا العربي ، إذ انهم حاولوا دراسة التاريخ العربي وفقا للتقسيم الغربي المتمثل في تقسيماته الثلاثة : العصر القديم ، والعصر الوسيط ، والعصر الحديث ، فسعى المستشرقون الى اعادة تقسيم المادة التاريخية وفقا لمرجعياتهم الفكرية ، فكانت هناك عصور عدة لكن يجمعها هذا التقسيم : (٤٨)

١- الحقبة القديمة : وهي الحقبة الممتدة من الجاهلية وحتى سقوط بغداد ، وهذه الحقبة تناظر الحقبة القديمة في التاريخ الاوروبي .

٢- الحقبة الوسيطة : وهي الحقبة الممتدة من سقوط بغداد وحتى العصر الحديث ، وهي حقبة تناظر حقبة العصر الوسيط في التقسيم الاوروبي للتاريخ العام ، من جهة انها حقبة انحطاط وتخلف ، مما جعل التاريخ العربي المدرَّس في المناهج والمقررات الدراسية والخاضع للتقسيم الاوروبي يهمل هذه الحقبة اهمالا شبه كلي ، على نحو جعلها اشبه ما تكون بـ(الثقب الاسود) في التاريخ العربي وتاريخ الادب .

٣- الحقبة الحديثة التي تبدأ مع ما يسمى (النهضة العربية الحديثة) في مناظرة للنهضة الاوروبية ، وهي نهضة يُؤرخ لها عند بداية تعرّف العرب النهضةَ الاوروبية ، ويؤرخ لهذا التعرف نفسه بالحملة الفرنسية على مصر وما اعقبها من قيام دولة محمد علي باشا في مصر مطلع القرن التاسع عشر .

ووفقا لهذا التقسيم فان المستشرقين ارخوا الادب العربي في ضوئه ووضعوا تقسيمات من خلال هذا التحقيب الثلاثي الغربي مازجين بين التحقيب بالحوادث والتحقيب بالسلالات ، مما يعني ان عملية التناظر التحقيبي بين الحقب الاوروبية والحقب العربية سواء كان في التاريخ العام ام في تاريخ الادب انما تمت عبر نقل تلفيقي لايعدو الا ان يكون صورة اخرى عن التحقيب الغربي القائم على مرجعيته الثقافية العاكسة لتلك البيئة التي تشكلت فيها ، وهذا النقل التلفيقي انما يشكل تحيزا معرفيا يجعل منهجية التناظر فاقدة للموضوعية العلمية ، ذلك ان لكل بقعة لها تحقيبها الخاص ، ولكل مرحلة تاريخية لها مفهومها للتحقيب ، ولكل تاريخ بصورة عامة له رؤية وتصور ينسجم والبيئة التي يؤرخ لها ، ولذلك فان فرض هذه التقسيمات لا يعدو ان يكون شكلا من اشكال المركزية الغربية الخاضعة لتحيزاتها تجاه الشعوب غير الاوروبية .

وهذا المنهج لا يخرج عن الإطار العام لتعزيز المركزية الأوروبية ، من خلال تقديم التاريخ الأدبي الأوروبي على أساس أنه العام والرسمي للتاريخ الأدبي الإنساني كله ، ولهذا جاءت نتائج تطبيق هذا المنهج محملة بتحيزات الآخر وما رافق هذه التحيزات من فلسفات تاريخية في مجال تاريخ الادب ، إذ ان المؤرخين الغربيين ... قدموا تاريخ العالم كله من زاوية نظر غربية اقليمية جعلت من اوروبا مركزا للعالم تدور حوله التواريخ الاخرى ، التي غدت ظلالا باهتة لهيكل التاريخ الاوروبي العالمي ، كذلك فان نشأة العلوم الاجتماعية والانسانية الحديثة تزامنت مع الفترة التي تكوّن فيها وعي الغرب بانه اضحى مركز العالم ، ومن ثم تعددت التحيزات في مناهج هذه العلوم (٤٩) ، وطبقا لذلك فان رؤية الغرب لمنجزات الثقافة العربية وما حوتها دراسة وقراءة وخصوصا تاريخ الادب العربي ستكون من منظور خاضع لهذا التصور المركزي ، متجاهلين بصورة مقصودة او غير مقصودة للخلفية الفكرية التي شكلت ارضية تلك القراءة لتاريخ الادب وما نتج عنها من تحيزات .

واذا علمنا أن ((اي ظاهرة فكرية او علمية لا توجد فجأة وبدون مقدمات بل ان ثمة مركبا من الاسباب ادى اليها وهي جزء من نسيج مجتمعي حضاري ترك فيها تحيزاته وتوجهاته وآلامه واحزانه ورؤاه وعنصريته ))(٥٠) ، فان هذا الامر يضعنا امام مساءلة لعملية اختيار المنهج ليكون طريقا لقراءة تاريخ الامم والشعوب من قبل الآخر الغربي ، فالتراث الغربي ((ليس تراثا انسانيا عاما يحتوي على نموذج التجربة البشرية ، وليس فقط وريث خبراتها الطويلة تراكمت فيه المعارف انتقالا من الشرق الى الغرب ، بل هو فكر بيئي محض ، نشأ في ظروف معينة هو تاريخ الغرب وهو نفسه صدى لهذه الظروف)) (٥١) ، ولهذا يذهب الناقد الامريكي ج.هلس ملر الى القول بانه : ((على الرغم من ان النظرية قد تبدو موضوعية وعالمية مثل اي اختراع تقني ، فانها في حقيقة الامر تنمو في مكان وزمان وثقافة ولغة محددة ، وتبقى مربوطة الى ذلك المكان واللغة))(٥٢) ، وهذا الامر يجعلنا ننظر اليه على انه استراتيجية غربية محضة قرأت تاريخها قراءة نابعة من بيئة الثقافة نفسها ولهذا فان اي محاولة لتعميم هذا النموذج في القراءة سيكون محملا بتحيزات السلطة العليا التابعة لمرجعيات الانموذج الاساس ،

حيث ان التراث الغربي ومحاولة قراءته وفق منهجية ما ، لا يعني ان هذا التراث وتلك المنهجية انما استحالا قيما متعالية وعابرة للثقافات .

يقول ادورد سعيد عن انتقال النظرية : حين تنتقل النظرية فانها تمر باختلافات جذرية اذ تنتقل ضمن الثقافة الواحدة ، او الثقافات الشديدة التجانس ، كما حدث في اوروبا ، فما بالك اذا كانت تلك المنطقة تشمل العالم باكمله . (٥٣) لاسيما في موضوع تاريخي يكون الامر اكثر صعوبة لان موضوعة التاريخ تكون عرضة لتحيزات كثيرة تبدأ بالمنهج ولا تنتهي حتى في الاستناجات .

ذلك ان عملية التاريخ تجري بنوعين متكاملين من النشاط البحثي ، اولهما تحليل المادة التاريخية اي التقاطها من مصادرها ومظان وجودها وتحقيقها ، وثانيهما تركيب هذه المادة التاريخية في سياق بنائي واحد ، وفي كلتا المرحلتين التحليل والتركيب يوجد عنصر ذاتي وان اختلفت درجته في المرحلتين ، ذاتي لا بمعنى انه شخصي ولا انه من قبيل الهوى او الاسترواح ولكنه ذاتي بمعنى انه لا ينتمي الى المادة البحثية انما يرد من قبل الباحث اي ينتمي الى عصر الباحث والى مجتمعه وهمومه وشواغله(٥٤) ، والباحث في مجال التاريخ - وبخاصة في تاريخ الادب - يكون ازاء مادة تاريخية لها امتداداتها المتشعبة: السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، واي محاولة لاعادة كتابتها وتحليلها انما تحتاج منهجا متوافقا مع هذه الثقافة وتلك البيئة ، ومع كل ذلك فان قضية التحيز واقعة لا محالة ، لان عملية انتزاع ذات الباحث من تعامله مع متون التاريخ عملية صعبة ، فكيف ونحن ازاء منهج قائم على اسس ، ومبني على سياقات ثقافية ومرجعية غريبة عن هذا المتن التاريخي لادبنا العربي .

نتيجة لذلك فان الكتابة في تاريخ الادب لدى المستشرقين اتخذت مسارا كونيا يسعى لتدويله وتطبيقه ليكون منهجا شموليا قابلا لتعديته وتعميمه لكل ثقافات العالم ، مما شكل نسقا ثقافيا قائما على خطاب تحيزي متعال يسعى الى انشاء آلية عابرة لآداب العالم باختلافاتها وتمايزها بل احيانا بتناقضاتها مع تطبيق هذا المنهج ، ليستحيل في النهاية - كما في ادبياتهم - الى نوع من القداسة التي لا يمكن الخروج عنها او تجاوزها ، وهو ما شكل قبولا تاما عند من تلقى هذا المنهج من المؤرخين العرب ، او قبولا معدلا عند من حاول ان يكيفه مع واقع ثقافته .

* * * * *

المحور الثالث

التحيز الاجرائي

ان التحيز فيما كُتب من دراسات في تاريخ الادب العربي مثّل اشكالية كبيرة من نواح عدة لعل اهمها التوجه نحو الثقافة الغربية ، والسعي في التماثل والتماهي مع ما قدمته هذه الثقافة ، فضلا عن التحيزات الداخلية التي بدت من هؤلاء المؤرخين العرب نحو الادب العربي وآلية كتابة تاريخه بين الاعتماد على ما قدمته المنظومة الاستشراقية ، وما اجترحه بعض من هؤلاء المؤرخين منهجا كان انعكاسا لرؤيته الذاتية المشبعة بالتحيز نحو الادب العربي .

فقد اعتمد بعض مؤرخي الادب العربي الهوى والميل في اعمالهم التحقيبية ، فجاءت وجهات نظرهم مختلفة بعضها عن بعض اختلافا شديدا ، وليس من شك في ان هذا الاختلاف لا يخلو من خطر على تاريخ الادب نفسه ، اذ هو يجعل من الكتابة في مادته ممارسة من ابعد الممارسات عن الموضوعية ، لاسيما حين يدخل التعصب المذهبي العقائدي بين ثنايا المنهج التاريخي ، إذ ان هذا الامر يبعث على الاعتقاد في ان التأليف في هذا الموضوع ليس اكثر من فرصة يغتنمها المؤرخون لنشر عقائدهم المذهبية ، وليس ادل على هذه الحالة من جرجي زيدان حين مرَّ مرورا سريعا على عصر صدر الاسلام رغم اطالة نسبية في تناول العصرين الجاهلي والاموي ، لا لشيء ، فيما يبدو الا لانه العصر الذي ظهر فيه الاسلام ، اذ خصص زيدان لعصر صدر الاسلام اربع عشرة صفحة فحسب رغم انه عدّ ظهور الاسلام اهم انقلاب اصاب العرب من اول عهد تاريخهم الى الان ، ويبدو ان مسيحيته هي التي دفعته الى ذلك ، وفي مقابل ذلك نجده توسع في ما اسهم به النصارى واليهود في تطوير الفكر العربي طيلة تاريخه(٥٥) ، وقد وقعت تحيزات اخرى كثيرة عند المؤرخين العرب عند كتابتهم لتاريخ الادب العربي على المستوى الاجرائي ، سواء ما تمثلت هذه التحيزات في تطبيقهم للمنهج التحقيبي المبني على التقلبات السياسية ، او غيرها من التحيزات التي سنتناول بعضا منها تمثيلا .

**١- التحيز في مرحلة ما بعد سقوط بغداد :**

لعل من ابرز التحيزات الاجرائية التي وقعت اثناء تطبيق المنهج التحقيبي هو في التماثل الذي حصل بين التحقيب الاوروبي والتحقيب العربي ، إذ جرت عملية تماثل بين العصور في الثقافتين ما نتج عن هذا التماثل عصر قيس على غير مقاسه فجاءت النتائج خاطئة ، وهذا ما حدث مع العصر الذي تلا سقوط بغداد وهو ما سمي بالعصور المتأخرة او المظلمة او عصر الانحطاط .

وهذا العصر حُدد بانه ((الحقبة ما بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث ، وهي حقبة تناظر العصر الوسيط في التقسيم الاوروبي للتاريخ العام ، من جهة انها حقبة انحطاط وتخلف وما عدا هذا التقسيم ، اهمل التاريخ العربي المدرَّس في المناهج والمقررات الدراسية هذه الحقبة اهمالا شبه كلي على نحو جعلها اشبه ما تكون بـ(الثقب الاسود) في التاريخ العربي))(٥٦) ، فقد اعتاد مؤرخو الادب العربي في اطلاق تسميات على هذا العصر تشي بدلالات الهبوط والجمود والانحطاط والتخلف والركود ، حتى استحال هذا العصر وفق هذه الرؤية لحظة انحدار ساحق في تاريخ الثقافة العربية ، والحقيقة ((انه ما من عصر من عصورنا الادبية اصابه من الظلم في الاحكام ، والاهمال في الدراسات ما اصاب هذا العصر وناله )) (٥٧) ، وهذا كله راجع الى الرؤية الاستشراقية التي تأثر بها مؤرخو هذه المرحلة الذين تحيزوا الى رؤية من سبقهم من المؤرخين المستشرقين ، تلك الرؤية التي اعتمدت المنهج التحقيبي اساسا في تقييم هذه المرحلة التاريخية ، ((ان قبول مصطلح عصور الانحطاط لا يعني التسليم بمبدأ التحقيب فحسب ، بل انه يحمل في تلاوينه تصورا يلغي تعددية الزمن ويمحو كثافته ونسبيته ويعتبره فضاء مطلقا يتطابق فيه ما هو سياسي مع ما هو ثقافي واجتماعي واقتصادي على نحو حتمي صارم ، والحال ان

لكل ميدان من ميادين النشاط البشري زمنه الخاص الذي يتقاطع مع غيره من الازمنة ويتغاير معها في الآن نفسه))([٥٨]) ، مما يعني ان السقوط السياسي لا يعني انحدارا في المستويات الاخرى وتمفصلاتها ، إذ تبقى النشاطات الانسانية محكومة بضوابط الزمن الحضاري لا بسبب السقوط والتردي السياسي وان كان هذا الجانب له اثره لكنه يبقى محدودا بحدود قابلية هذه المستويات المعرفية المتعددة في صمودها ومقاومتها لعوامل التمدد السلبي لهذا السقوط .

ان رؤية المستشرقين لهذه المرحلة لم تكن تصدر عن رؤية حيادية موضوعية بقدر ما كانت مغلفة بطابع التحيز والتحامل ، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد ان نالينو الذي سمى العصر الذي تلا سقوط بغداد بعصر الانحطاط يقول : (( عصر الانحطاط من انقطاع الدولة العباسية الى استيلاء محمد علي باشا على مصر سنة ١٢٢٠ه/١٨٠٥ ، وفيه خمدت جذوة الآداب والعلوم التي لم تزل مائلة الى الهبوط حتى كادت تنطفي جمرتها كلية في بعض الاصقاع الاسلامية ، وفترت همم اهل العلم فاصبح اكثرهم ممسكين عن الاجتهاد المستقل في المباحث مقتنعين بالنظر في كتب من تقدمهم بدون خروج عن رتبة المقلدين وبغير طمع في مباراة السلف ، وكذلك الشعراء والادباء واقتصر اغلبهم على حذو السابقين فنجد اشعارهم كأنها تصدر عن المتصنع المتشبه الذي يكتفي بتنميق العبارة وزخرف الكلام وإشكال البديع ولا يهتم بالتعبير عن حقيقة ما يكنه صدره من العواطف والخواطر ))([٥٩]) .

فهذه النظرة المحملة بالتحيزات لهذه المرحلة من تاريخ الادب ، انما صدرت من فلسفة صبغت رؤيتهم للآخر الشرقي من خلال بنية ثقافية متحيزة قائمة على ((قوالب جامدة ومفاهيم نمطية تمرر الرؤية الاستشراقية عبرها تمركزا عرقيا يتجلى في عملية التوحيد والاختزال لحضارات مختلفة وتعميدها باسم واحد ومفهوم موحد ، كما تولد هويات ثابتة مثل شرق / غرب ، نحن / هم ، تحديث / تأخير ، تقدم / جمود / او ركود))([٦٠]) ، فجرجي زيدان الذي تبنى المفهوم التطوري القائم على نظرية دارون في النشوء والارتقاء التي تؤمن بتدرج الجنس البشري في التطور، حاول ان يطبقه على تاريخ الادب ليصل الى مرحلة سقوط بغداد ، إذ يقول جرجي زيدان : ((لكل علم من العلوم على اختلاف موضوعاتها ادوار يمر بها كما يمر الحي بادوار الحياة لان العلوم من توابع الاحياء فتخضع لنواميس النشوء مثل خضوعهم ، والادوار التي تمر بها العلوم هي ١- دور التكوين الولادة ٢- دور النمو او النشوء الصبا ٣- دور البلوغ الشباب ٤- دور النضج الكهولة ٥- دور التفرغ او التشعب او الانحلال الشيخوخة )) ([٦١]) ، إذ يسعى الى ان يسقط هذه النظرية على تاريخ الادب العربي : ((اما الآداب العربية على الاجمال ، فاصبحت في احط ادوارها ، وندر نبوغ العلماء والمفكرين او المستنبطين فيها ، واكثر ما كتب في هذا العصر انما هو من قبيل الشروح والحواشي وشروح الشروح ونحوها ، ويصح ان يسمى هذا العصر عصر الشروح والحواشي كما سمينا العصر المغولي عصر الموسوعات والمجاميع))([٦٢]) ، فمنهج جرجي زيدان قائم على مقايسة تحيزية غير منصفة لاسيما حين يطبق نظرية علمية غربية على نسق انساني تاريخي ليخرج بهكذا نتيجة مجحفة لهذه المرحلة التاريخة من ادبنا العربي .

وهذه الرؤية القائمة على نظرية النشوء والارتقاء نفسها اعتمدها الزيات في مصنفه تاريخ الادب العربي ، إذ يقول : ((وانت اذا نظرت الى الشعر العربي كله بنظرة واحدة فعرضت تاريخه كما تعرض تاريخ الكائن الحي وجدته قد تطور في موضوعه تطور الامة العربية ، وقطع معها مراحل الحياة الانسانية ، فهو في الجاهلية انغام صبى وحماسة فتوة وعواطف اثرة ، وفي الاسلام اناشيد جهاد وثوران عصبية ، واطماع حياة ، ثم استحار شبابه واكتمل في صدر الدولة العباسية ، ... ثم ادركه الهرم في اواخرها فظهر في شعر المتأخرين تمويه صنعة ، وزخرف شيخوخة ، ومعالجة روح)) (٦٣) ، ولهذا فان العرب في هذه المرحلة - كما وصفهم الزيات- : ((طال عليهم الامد فغشاهم النعاس ، وخيم عليهم الظلام ، فلم يستيقظوا الا بمدافع نابليون على ابواب القاهرة))(٦٤) ، فضلا عن ذلك فان نظرة الزيات المشبعة بالدونية جعلته يخصص لما تلا سقوط بغداد ممثلا بالعصرين المغولي والعثماني اربعة عشر صفحة فقط رغم انه خصص للعصور الاخرى ما يربو عن مئات الصفحات ، لا لشيء فيما يبدو الا لانهما كانا في نظره عصري انحطاط ، وهذا كله يشير الى ان هناك تحيزا ظاهرا ، ودوافع ذاتية كان لها اثرها في جعل تلك المؤلفات تعمل على حماية ثقافة معينة وعلى خدمة تصور معين للماضي وللتراث(٦٥) ، ليمتد اثر تلك الكتابات لمدد زمنية طويلة والى مؤلفين كثيرين ، لاسيما وان هذه النظرة صبغت اغلب كتب تاريخ الادب العربي التي ارخت لهذه المرحلة ، فقراءة سريعة لبعض المصادر(٦٦) تبرز لنا الظلم والحيف الذي وقع على هذا العصر جراء تلك الرؤية المتحيزة ، إذ نجد لغة متحيزة برؤية سوداوية تشي بذلك التحيز من قبيل (خمدت ، مائلة ، الهبوط ، الانطفاء ، الفتور ، التقليد ، التنميق والزخرف ، الخمول ، الوبال ، الانحطاط ، اسفل الدركات ، تسلط الخمول ، التقليد ، الصناعة المقيتة) ، وهذه المفردات كلها تكشف عن النظرة السلبية التي صدرت عن الخطاب الاستشراقي التي القى بظلاله على تاريخ ادبنا العربي والتي صبغت مصنفاتهم بهذه الرؤية ، سواء ما خص التسمية ، او ما تعلق بالنتاج الفكري .

ان قراءة هذه الآراء تجعلنا ازاء حكم متعسف لهذه المرحلة بسبب المفاهيم الخاطئة التي اطلقت على مرحلة زمنية طويلة ، فدراسة هكذا مرحلة بما فيها من نتاج سواء كان ضعيفا ام قويا ، يحتم علينا الانصافُ النظرَ بموضوعية وليس بتحيز لا نبصر من خلاله الا النصوص التي وسم بها هذا العصر بالانحطاط والانحدار ، لاسيما ((ان ازمة الشعر ومآزقه التي ادت الى وهنه وانكفائه وتلاشيه لم تبدأ في المرحلة المصطلح على تسميتها بـ(عصور الانحطاط) ولم تشرع في التشكل في تلك الحقبة ، اي بعد وصول العثمانيين الى الحكم ، وهذا يعني ان الحديث عن عصور الانحطاط باعتبارها مجمع الويلات والمحن والتراجعات موقف في غاية التبسيطية ، فلا وجود لعصور انحطاط محددة في التاريخ ، بل هناك سيرورة انحطاط شرعت في التشكل ، واخذت تستكمل شروطها قبل هذه المرحلة بكثير))(٦٧) ، هذا اذا نظرنا الى هذه المرحلة على ان نتاجها الثقافي والمعرفي كان متدنيا عن المراحل التي سبقتها ، اما اذا اردنا الانصاف والموضوعية فان مرحلة ما بعد سقوط بغداد لم تنقطع عن النتاج والابداع في كل المستويات الا في الجانب السياسي .

وقد رأى د. شوقي ضيف ان هذه المرحلة – وبسبب التقلبات السياسية – كانت تشهد مقاومة ثقافية لاجل الاحتفاظ باصالة الشخصية العربية ومقوماتها ، إذ يقول : (( ظن الباحثون انها اثر الجمود وركود الفكر وخموده ....، الحق انه لم يكن هناك ركود ولا خمود ولا تعطل ذهني ، انما كان هناك محافظة قوية بدافع الاحتفاظ بالشخصية العربية))([٦٨]) ، هذا الدافع الذي تعزز بمقومات الاصالة والابداع والنتاج المعرفي كان بمثابة الحصن المنيع لكل اختراق فكري ، فـ((عهود النكبات في التاريخ الانساني كانت دائما حافزة الى التفكير في الماضي وفي المصير ، ومثيرة للاهتمام في تفسير التاريخ وتعليله ..... ، ان جهد ابن خلدون الجبار في دراسة العمران البشري واستخراج قوانين التطور الاجتماعي جاء في عهد كان فيه العالم الاسلامي المترامي الاطراف قد انقسم دولا متناحرة تغير عليها جحافل الغزاة ، وكانت مدنيته قد سارت خطى واسعة في طريق الانحطاط والانهيار ، فاثار هذا كله في نفس ابن خلدون تساؤلات خطيرة عن نشوء الامم وتطورها وتداعيها ، وجاءت تلك المقدمة الرائعة التي نظم بها هذه التساؤلات واجوبته عنها فكانت اثرا خالدا من ابرز آثار التفكير التاريخي والاجتماعي))([٦٩]) ، وهذا ما يعطي صورة محفزة لروح المقاومة الثقافية التي كانت تصدر عن الذات العربية ازاء النكسات السياسية المتتابعة ، وليس كما قدمه لنا هؤلاء المؤرخون صورةً للانهيار الثقافي والانحطاط الادبي وما رسمته كتاباتهم التي جاءت نتائجها محملة بالاحكام السطحية ، المبنية على تزييف الحقائق وتحقير هذه المرحلة ونتاجاتها والتبرؤ منها بدافع الابداع والاصالة قياسا على المرحلة التي سبقتها .

ان قراءة هذه المرحلة بانصاف تجعلنا نقر بالضعف الذي انتاب هذا العصر وان (بعض) النتاج - والنتاج الادبي على وجه الخصوص- لم يكن بالمستوى الذي كان عليه في العصر العباسي ، لكن لابد من الاقرار ايضا بشيء من الانصاف لما قدمته هذه المرحلة من نتاج معرفي وفكري وادبي ولم يلتفت اليه احد ، وان نتاجها المعرفي بقوته وضعفه لا يعني اغفال مرحلة امتدت لقرون طويلة مليئة بالاحداث السياسية والتقلبات الاجتماعية فضلا عن تواصلها المعرفي والعلمي ، سواء ما تعلق منها بالطب والتاريخ والادارة والموسوعات الادبية وغيرها ، بمعنى انه كان هناك تفاوت في النتاج والابداع والاصالة ، ولم يجر على مستوى واحد ، بسبب التداعيات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية ، وهذا كله انعكس على مجمل الحياة الثقافية التي تراوحت في نتاجها بين الصعود والهبوط ، إذ لم تمت فيها الحياة الثقافية ولم ينعدم الادب ، ولم يمنع ظهور العلماء والمفكرين الذين لمعت اسماؤهم في سماء الثقافة العربية كابن الجوزي والفيرزابادي وابن خلدون وابن منظور وابن بطوطة وابن خلكان والذهبي والمقريزي ولسان الدين ابن الخطيب والسيوطي وابن مالك وابن هشام والزبيدي صاحب كتاب تاج العروس والقلقشندي وابن عساكر والبغدادي صاحب كتاب خزانة الادب وابن كثير وياقوت الحموي وابن حجر العسقلاني وابن الاثير والمقريزي ، ومن الشعراء الشاب الظريف والبوصيري وابن نباتة وابن حجة الحموي وصفي الدين الحلي ، وغيرهم كثير مما يصعب

حصره في دراسة صغيرة ، نظرا لحجم النتاج الفكري الذي شهده هذا العصر والذي يعبر عن الحركة الثقافية المتواصلة التي لم تتوقف .

فالتمييز بين الايجابي والسلبي من التراث او التقليد ينطوي على الحكم في عناصر التاريخ ، وحتى يكون هذا الحكم من جانبنا صحيحا يقتضي ان تكون مقاييسنا دقيقة ، ومعاييرنا سليمة ، وقيمنا خالصة منتظمة غير متحيزة لآراء داخل ثقافتنا او خارجها ، وان نعرف المقاييس التي نستخدمها في هذا التمييز ومن اين استمددناها ، وكيف صنفناها ؟ وما هي القيم التي نتمسك بها ونتخذها معايير لنا في احكامنا ، وما هو مصدرها او مصادرها([٧٠]) ، ، وهذا ما غاب عن المؤرخين العرب حين حكموا على هذه المرحلة ، لانهم في حقيقة الامر لم يفهموا حركة الادب التاريخية فهما صائبا ، ليدركوا اسرار الرقي والتقدم فيه ، وليتجنبوا تلك العناوين العامة التي اطلقوها على العصور ، فجعلوا بعضها عصور انبعاث وبعضها عصورا ذهبية وبعضها عصور انحطاط ، وهذه المرحلة مرحلة تقدم والمرحلة الاخرى مرحلة جمود ، لا سيما وان الحكم بالرقي والانحطاط والتقدم والجمود افسدت التاريخ الادبي ، اذ جعلت من مهمته ان يحكم على حين كان من مهمته ان يصف وانتقلت به من برج المراقبة والملاحظة والتسجيل والرصد الى منصة الحكم والقضاء([٧١]) ، لتغدو المصنفات – تبعا لذلك – بعيدة كل البعد عن الموضوعية ، ومحملة بتحيزات الآخر فضلا عن تحيزات الذات تجاه ثقافتها وموروثاتها .

ومما يتصل بهذه المرحلة وتحيزاتها التسميةُ التي اطلقت على هذه الحقبة الادبية والاختلافات التي تفاوت في شأنها مؤرخو الادب ، فبغض النظر عن تسمية بعضهم هذا العصر بانه (عصر الانحطاط) او مرحلة (العصور المظلمة) ، فان المشكلة اللافتة للنظر هي ان المؤرخين وبدافع ربط الادب بالمسار السياسي اطلقوا تسميات على هذه المرحلة من الواقع السياسي الحاكم ، فاذا كان هناك الادب الاموي والعباسي بفعل سيطرة هاتين السلالتين على مقاليد الحكم ، فان مرحلة ما بعد سقوط بغداد سميت بـ(العصر المغولي او التتار) و(عصر المماليك) ، و(العصر العثماني) او (العصر التركي) .

وهذه المسألة في حقيقتها غبن لنتاج هذا العصر ، فاطلاق جرجي زيدان على هذا العصر بـ(المغولي) ليس له مبرر علمي الا لانه اعتمد المقياس السياسي الذي يحتم عليه تسمية العصر بمن كان على رأس السلطة ، ، وما يقال عن تسمية العصر المغولي يقال عن تسمية العصر العثماني او التركي ، او عصر الدول الاعجمية ، اما تسمية (عصر الدول والامارات) او (عصر الدول المتتابعة) ، فهو وان كان يربط الادب بالمقياس السياسي الا انه الاخف وطأة في هذه التسمية ، الا ان هذه التسميات تبقى ((حدثا مضللا ، [ فلها ] مكائدها ومكرها ، انها تمحو اكثر مما تبين ، وهي تحجب اكثر مما تكشف ، بل ان مجرد اللهج بها يعني التسليم بان التردي السياسي الفاجع الذي تسارعت وتيرته بعد سقوط غرناطة قد افتتح امام الثقافة العربية تاريخ افولها))([٧٢]) ، لاسيما وان هذه التسميات (العصر التركي ، العصر العثماني ، عصر المماليك ، العصر المغولي) ، تضمر خطابا تحقيريا بالمنجز الثقافي لهذه المرحلة ، وتعكس طابع التحيز

الذي يقطع هذه المرحلة بارثها الثقافي وامتداداتها الحضارية ، لتصطبغ اغلب المصنفات التي جاءت فيما بعد بهذه التسميات البعيدة عن حقيقة هذه اللحظة التاريخية .

* * *

**٢- التحيز في تحديد عصر النهضة :**

كان من ضمن التحيزات التي رافقت كتابة التاريخ العربي والتاريخ الادبي بوجه خاص تحديد نهاية مرحلة ما سميت تحيزا بـ(الفترة المظلمة) وتحديد بداية عصر النهضة ، إذ انهم اختلفوا في بداية مرحلة النهضة على اربعة آراء : (٧٣)

- تبدأ سنة ١٧٩٨م بدخول نابليون الى مصر وما تلاه من حكم محمد علي باشا .
- تبدأ في اواخر القرن التاسع عشر .
- تبدأ باعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م .
- تبدأ ببداية الحرب العالمية الاولى ١٩١٤م .

الا ان اغلب المؤرخين بمن فيهم العرب والمستشرقون اتفقوا على ان حملة نابليون وما بعدها هي التي كانت النقطة التي بدأت فيها النهضة العربية ، محاولين ان يصورا بان نهضتنا الحديثة جاءت على طلقات مدافع نابليون التي دوت في الارض العربية ، وان هذه النقطة كانت تحولا ومفترق طريق بين حقبتين فاصلتين ، وهذا الرأي الذي يذهب اليه اغلب المؤرخين لهذه المرحلة هو رأي فيه من الاجحاف والتحقير لما سبق من قرنين من الزمان مثلما هو رأي يتجاهل جهودا تأسيسية سبقت هذه المرحلة سواء في مصر ام في غيرها من البقاع العربية .

وهذه الرؤية في حقيقة امرها جاءت استجابة للامتثال للخطاب الاستعماري الذي رسخ فكرة تقول بان التحديث وكل ما يتصل به جاء مع الحضور الغربي الى الشرق ، ومن المعلوم ان المدونات الاستشراقية التي نشطت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قدمت صورة اختزالية عن الشرق ثقافة ومجتمعا ، وهي صورة توافق الرؤية التي ينتظرها الغربيون ، وتستجيب لتصوراتهم النمطية عنه ، وتفاعل الخطاب الاستعماري والصورة الرغبوية الاستشراقية في استبعاد الاشكال الادبية الاصلية ، وذمها ، وبها استبدلت اشكال اخرى توافق تصوراتها ، مما جعل الحملة الفرنسية على مصر ونتائجها كثيرا ما يصار الى تضخيمها ، لتكون الركيزة التي تقام عليها كل التصورات اللاحقة ، وهو الموضوع الذي تعرّض لمبالغة في الرغبة دفعت بها آليات الخطاب الاستعماري الى بؤرة الوعي الفكري والادبي(٧٤) ، مما نتج عن ذلك خطاب تحيزي مضمر يرى في الثقافة العربية ركودا وجمودا لم تستطع الانفلات منه لولا هذا المد الغربي الذي ايقظها من سباتها .

ولعل الخطاب الاستشراقي كان واضحا منذ البداية في ترسيخ هذا التحيز الذي مال الى تحديد بدء النهضة مع الحملة الفرنسية على مصر ، إذ اتخذ هذا الخطاب مرحلة ما قبل النهضة اساسا للنظر الى ان الغزو الفرنسي لمصر هو بداية التحديث بعد قرون من التخلف والانحطاط والظلامية التي وسموا بها العصر الذي سبق عصر النهضة ، ولهذا فان المستشرقين ومن تبعهم من المؤرخين العرب لتاريخ الادب العربي قد نظروا في الحملة الفرنسية نظرة مقدسة والى

قائدها نابليون على انه فاتح عظيم ، وان محمد علي باشا مكمل للتنوير الفكري وراع لحملة التحديث والنهضة ، وهذا الخطاب التحيزي نلمسه عند اغلب مؤرخي هذه المرحلة ومن اعتمد التحقيب منهجا اجرائيا لتاريخ الادب الحديث .

ولعل من المصنفات التي كان لها حضور واسع في الاوساط التعليمية والاكاديمية كتاب (تاريخ الادب العربي) لاحمد حسن الزيات ، الذي لم يخف تحيزه في جعل النهضة الحديثة تبدأ مع حملة نابليون وحكم محمد علي باشا ، يقول الزيات عن حملة نابليون : ((فان الجماعة العلمية التي صحبت هذا القائد العظيم لم تصدها القلاقل والحرب عن غرس بذور الحضارة في مصر ، فأنشأوا مدرستين وجريدتين ومسرحا للتمثيل ومجمعا علميا ، ومكتبة ، ومطبعة ، ... فكان صنيع هذه الجماعة اشبه بالقبس الوضاء سطع في ذلك الغيهب الذي احلولك في سماء مصر فبدده ، واستطاع الناس ان ينظروا ، ولكن ماذا رأوا ؟ رأوا انهم في القرن التاسع عشر ، وان الغرب واقف منهم موقف الانسان العاقل من الحيوان الاعجم يرميهم بنظرات السخرية وهو دائب في سبيل الحياة الصحيحة ، مجد في تذليل المادة فبهتوا ودهشوا ، .... فكان ذلك كله وقودا جزلا للقبس الذي القاه نابليون بمصر ونفخ فيه محمد علي فذكا واشتعل وامتد لهيبه الى الشام والى سائر بلاد العرب فايقظ النيام وبدد الظلام))([٧٥]) ، إذ ان حصر التحديث في مصر وبسبب من حملة نابليون وجعل ادوات التحديث من تأسيس للمدارس وانشاء الجرائد والمجلات والمكتبات والمطابع .... ، انما يشكل في مجمله تحيزا للفكر الاستشراقي الذي سعى الى سحب مفردات التحديث والنهضة والتطوير الى الخطاب الغربي وافراغ خطابنا العربي منها وجعله خطابا متخلفا لا يستطيع ان يستوعب مفرادت النهضة الفكرية ، ولهذا استطاع الخطاب التحيزي ان ينتقل الى اغلب مصنفات تاريخ ادبنا العربي .

ان قراءة فاحصة لهذا الخطاب التحيزي يجعل العرب فاقدين اي محتوى ثقافي او فكري ، وان دورهم كان دورا استهلاكيا يعيشون على موائد الامم الاخرى ولم يكن لهم ادنى حضارة ولم يعرفوا العالم وينفتحوا عليه الا بدخول نابليون الى مصر ، واذا كانت الثقافة العربية قد مرت بانتكاسات بسبب التقلبات السياسية منذ سقوط بغداد وحتى السيطرة العثمانية فان هذا لا يجعل ان حضارتهم قد توقفت نهائيا وركدت ، فضلا عن ذلك فان الثقافة العربية لم تكن منغلقة عن الآخر الغربي قبل مجيء الحملة الفرنسية ، ولا يعني ايضا ان هذه الثقافة قد عدمت مفكرين او مثقفين خلال المرحلة السابقة .

فقراءة للمشهد المصري ابان الاحتلال الفرنسي تطلعنا على ان مصر لم تكن نائمة قبل ذلك ، بحكم ان الآثار المباشرة للاحتلال كانت محدودة لم تسمح للحداثة بمد جذور لها في مصر ، وقد جرى رسم صورة مفخمة للحملة توافق رغبة الخطاب الاستعماري ، وهي صورة منقّاة من الابعاد العسكرية والسياسية والتخريبية ، حيث تؤكد الوثائق ان مصر شهدت طوال حكم محمد علي عملية نهب واسعة للآثار من اراضيها ، فهذه الوقائع وغيرها لم يلتفت اليها وبها استبدلت بمرور الزمن مجموعة من المبالغات الخطابية التي صاغت ضربا امتثاليا وتبشيريا للحملة ، وذلك بعد تجريدها من بعدها الاستعماري المباشر ، ورفعها الى مستوى العمل التاريخي

الخلاق([٧٦]) ، وهذه الصورة هي عكس ما حاولت رسمه المصنفات العربية لتاريخ الادب ، فعملية الاستلاب الثقافي الذي مارسته المؤسسة الاستشراقية ومن تبعها حاولت تضخيم الدور الذي مارسته الحملة الفرنسية على مصر على انها البوابة التي ستنقل العرب من الجمود والتخلف الى سعة الانفتاح والمدنية ، غافلة عن الدور التخريبي الذي تركته هذه الحملة ، ومتناسية – عن عمد – ما قد تؤول اليه الامور فيما بعد ، والمسألة لا تخلو عن ان تكون مندرجة ضمن التأثير الاستشراقي الغربي بجعل المؤثر لنهضة العرب غربيا .

والسؤال : كيف بدأت عملية التحديث العربي ومتى ومن اين ؟

ان المتابع لتطورات الثقافة العربية وتحديدا في القرنين السابع عشر والثامن عشر يجد ان بوادر النهضة العربية قد اتخذت مسارين : **المسار الداخلي والمسار الخارجي** ، اما **الداخلي** فقد وردت في الادبيات العربية ان بوادر نهضة فكرية انبثقت في الثقافة العربية منذ القرن السابع عشر ، ويستشهد محمود محمد شاكر ببعض الاعلام الذين بدأت تلك النهضة بهم في مصر في القرن السابع عشر في مقدمتهم المؤرخ عبد القادر ابن عمر البغدادي(١٦٢٠-١٦٨٣) صاحب كتاب خزانة الادب ، والمؤرخ الآخر الجبرتي الكبير حسن ابن ابراهيم الجبرتي العقيل (١٦٩٨-١٧٧٤) والد المؤرخ المعروف عبد الرحمن صاحب كتاب (عجائب الآثار في التراجم والاخبار) المعروف بتاريخ الجبرتي([٧٧]) ، وغيرهم من العلماء الذين قادوا نهضة داخلية في العالم العربي قبل حملة نابليون بعشرات السنين ، إذ شكلت جهودهم ارهاصا كبيرا مؤذنا بعملية استئناف للحضارة التي توقفت بسبب التقلبات السياسية لتبدأ يقظة جديدة تعيد نضارة الحضارة العربية وتنهض على استعادة دورها الريادي ، لاسيما وانه من المخطئ ان نقر بان هناك بداية لنهضة عربية حديثة ، إذ (( ليس للنهضة العربية الحديثة حدود واضحة متفق عليها ، بل هي تيار متصل ، بعيد الجذور ، كثير الروافد ، يختلف اتساعا وتأثيرا واهمية في البلدان التي ورثت حضارة العرب ، وانتظمتها لغة الضاد ، وشكلت العالم العربي الحديث ، والنهضة الادبية مرتبطة بالنهضة الاجتماعية والثقافية ، وبمدى انفتاح البيئة التي تعيش فيها على سائر البيئات قريبة وبعيدة ... ، لم تنقطع الثقافة العربية انقطاعا تاما في اي عهد من العهود ، بل ظلت شمسها تتخلل الغيوم المتلبدة لتسطع في بؤر معينة ومؤسسات مشعة في العالم العربي ))([٧٨]) ، هذا عن المسار الداخلي للنهضة العربية التي سبقت حملة نابليون .

اما المسار الخارجي فيتمثل في التأثر المباشر وغير المباشر بالحضارة الغربية ، وهذا التأثر لم يبدأ مع الحملة الفرنسية على مصر ، بل سبق الحملة بعشرات السنين ايضا ، وقد تم هذا التأثر عن طريقين:

**الاول** : وهو طريق غير مباشر تمثل في استفادة العرب من التطورات والتحديثات الغربية عن طريق الدولة العثمانية ، إذ ((ان بوادر التحديث العربي وارهاصاته الاولى كانت من خلال اتصال العثمانيين باوربا ومن خلال حركة الاصلاحات العثمانية التي سبقت تاريخ الحملة الفرنسية ، فهذه الاصلاحات فتحت الباب للثقافة التركية للتواصل مع الثقافة الاوروبية والاقتباس من علومها ومعارفها وافكارها وآدابها وفنونها ، فكان ان تعرف العرب على هذه

الافكار الاوروبية الجديدة من خلال اللغة التركية التي يتقنها معظم الكتاب العرب))([٧٩]) ، فقد تجلت عملية التحديث التركي الذي استفاد من المنجزات الغربية من خلال عدة امور لعل اهمها المطبعة التي دخلت الى الدولة العثمانية قبل دخولها الى مصر* في اواخر القرن الخامس عشر على يد عالم لاهوت يهودي يدعى اسحق جرسون ، كما ان البعوث العلمية التركية الى اوروبا قد سبقت بعوث محمد علي باشا ، وان بروز النشاط الترجمي من اللغات الاوروبية قد سبق ما قام به التراجمة العرب او طلاب مدرسة الالسن التي اسسها رفاعة الطهطاوي ، كما ان فكرة التمثيل المسرحي قد دخلت الثقافة التركية قبل دخولها الثقافة العربية، وقد تنبه الاتراك الى اهمية الصحافة وتأثيرها فاشتغلوا فيها ونشروا افكارهم من خلالها ، ومثلما تنبه الاتراك الى هذه المجالات الجديدة المزدهرة في اوروبا ، تنبه العرب من خلال صلاتهم مع الدولة العثمانية الى اهميتها ، لاسيما وان معظم المفكرين والادباء والعلماء العرب كانوا على اتصال بالثقافة التركية ، فهم اما تلقوا تعليمهم في الاستانة واما يتقنون اللغة التركية فيقرأون ويكتبون بها نتيجة لاعتماد العثمانيين سياسة التتريك ، وهذا لا يعني ان الاتراك لم يجلبوا المطبعة بالحروف العربية ، إذ في العقد الثاني من القرن الثامن عشر ظهرت الطباعة بالحروف العربية في الاستانة على ايدي محمد افندي جلبي وابنه سعيد افندي اللذين اطلعا على اسرار المطبعة والطباعة في باريس وباشرا بنشر المعاجم العربية كمعجم الصحاح للجوهري والكتب التاريخية كتاريخ تيمورلنك وتاريخ مصر وغير ذلك من الكتب الانسانية والعلمية . ([٨٠])

**الثاني :** اما ارهاصات النهضة العربية التي تمثلت في طريق التأثر المباشر بالثقافة الغربية فقد بدأت في لبنان في القرن السادس عشر ، اذ سبقت بعض الشخصيات اللبنانية في الدراسة باوروبا ، ففي وقت مبكر درس الراهب الماروني جبرائيل بن القلاعي عشرين سنة في جامعات رومية وعاد منها سنة ١٤٩٣م وقد اتقن ستة عشر علما جديدا ، وعلى الخطى نفسها كان مسيحيو لبنان يرسلون ابناءهم الى روما لكي يتعلموا في كلياتها الاوروبية ويتقنوا الفلسفة واللاهوت وما اليهما من العلوم الرفيعة ليتمكنوا من الترجمة ، وبعد ذلك جرى تأسيس المدرسة المارونية في سنة ١٥٨٤م وكان لها اثر واضح في اللغة والعلوم والترجمة والنهضة الانسانية العامة في لبنان ، فضلا عن ظهور المطبعة في لبنان وحلب قبل حملة نابليون فقد دخلت على يد الراهب الماروني عبدالله ضاهر عام ١٦١٠ اي قبل حوالي ١٨٨ سنة من حملة نابليون ، وقد طبعت في هذه المطابع كثير من كتب التاريخ والفقه الاسلامي والادب باللغة العربية([٨١]) ، وهذا كله يؤكد ان مرحلة التحديث والنهضة لم تبدأ مع حملة نابليون ولم تبدأ ايضا من مصر ، وانما هو التحيز الفاضح الذي طفحت به مصنفات مؤرخي التاريخ من المستشرقين والعرب فصوروا لنا صورة بعيدة عن الموضوعية العلمية .

ان قراءة واقع الاستئناف النهضوي في الثقافة العربية بمساريه الخارجي والداخلي يجعلنا نقرر انه ((من العسير علينا ان ندرس حقيقة تاريخنا الادبي في العصر الحديث الذي اصطلحنا على انه تاريخ الصحوة او النهضة الفكرية ، التي نجمت عن اتصالنا باوربا عقب الحملة الفرنسية ، دون وضعه في سياق تلك العلاقة المعقدة بين العرب واوربا ، ودون التعرف على

واقع تلك العلاقة قبيل مرحلة هذا الاتصال الفعلي بالحضارة الاوروبية واثنائها ، والذي تم في سياق علاقات السيطرة الاستعمارية في مراحلها الاولى ، ودون معرفة واقع الادب والثقافة العربية قبل اجتياح اسطول نابليون للاسكندرية في اول يوليو عام ١٧٩٨ ، فهذان الامران ضروران لتأسيس الاتصال ، مع ما انقطع نتيجة لتلك القطيعة الكاملة مع الماضي ، والتي تنهض عليها عملية التاريخ لعصر النهضة))([٨٢]) ، فمعرفة الارهاصات الاولى لبوادر النهضة الفكرية العربية الحديثة وتتبعها ودراسة مسارها وتطورها من شأنه ان يجعلنا ننظر الى الحملة الفرنسية على انها كانت حملة تخريبية وتضليلية اعاقت المد النهضوي الذي كان يسير في مساره الطبيعي .

* * *

**٣- التحيز الاقليمي :**

كما مرّ سابقا ان تضخيم انجازات الحملة الفرنسية وما تبعه من تحيز تجاه جميع البدايات الحقيقية للنهضة العربية التي كانت قبلها ساعدت في اخفاء تلك البدايات التي بدأت في بلاد الشام ، وسواء ما ظهر في مصر او في بلاد الشام من بدايات نهضوية ، فان هاتين المنطقتين من العالم العربي ساعدتا في اخفاء واغفال مناطق اخرى لم تكن تكن اقل نهضة ووعيا ، واذا كانت لم تصل الى ما وصلته مصر وبلاد الشام بسبب السياقات الثقافية الخاصة ، لكنها على الاقل شكلت امتدادا نهضويا مستقلا معبرا عن حالة المشهد الثقافي الذي يؤطر جميع انبثاقات النهضة في سياق عربي واحد ، فعلى سبيل المثال نجد ان ميل بعض من المستشرقين والمؤرخين المصريين الى جعل بداية النهضة في مصر لا يخلو من اجحاف وتحيز في تحديد مكان وبداية عصر النهضة ، إذ يكمن مسعى بعضهم في ان تكون مصر حاضرة في كل تطور وتحديث يجري في العالم العربي ، وهي وان كانت لها المكانة الثقافية التي لا ينازعها فيها احد ، وانها كانت حاضنة للعلم والعلماء قبل النهضة وبعدها وبخاصة ايام الفاطميين وما بعدها وصولا الى العصر الحديث ، الا ان تمييزها من بين سائر العواصم الثقافية وجعلها البداية التي بدأت فيها عملية التحديث يدخل في باب التحيز الاقليمي .

إذ افرزت التنظيرات التي ارخت للبدايات الاولى للحقبة العربية الحديثة في مصر فـ((شكلا آخر من اشكال المركزية ، وهي مركزية فرعية تعمم التاريخ المصري الخاص بوصفه الملامح العامة للتاريخ العربي)) (٨٣) ، ومثلما نجد من يجعل بدايات النهضة تكون مصرية ، كذلك نجد من يذهب الى التحيز للنموذج اللبناني ويسعى نحو تعميمه وان تكون له الريادة في ذلك ، ((ان اقتصار انطوان غطاس كرم على تعميم النموذج اللبناني على مجموع العالم العربي اسقطه في نفس ما سقط فيه محمد يوسف نجم حين كان يعمم النموذج المصري على هذا المجموع ، لافتقاد الرؤية العضوية وغياب المناهج ونوعية النصوص والاحداث والظواهر التي يقوم عليها اعادة انتاجهم للتاريخ الادبي الحديث بطريقة يغيب فيها الـ(كيف) والـ(ماذا) والـ(هدف) ، اي غياب الاسئلة الجوهرية ، التي تكون صلب هذا الادب)) ([٨٤]) ، وهذا في الحقيقة خاضع لاسقاطات اقليمية ، إذ تجر مثل هذه الاسقاطات الى نوع من التعميم اللاموضوعي لمسار تاريخ الادب

العربي ، مما يربك عمل المؤرخ ويجعله يدور في دائرة ضيقة ، فما يصدر في بلد المركز يجب ان ينطبق على جميع الاصقاع من البلاد العربية الاخرى ، الامر الذي يجعل من تاريخ الادب قائما على مركزية تصادر نتاجات اخرى لم ترق الى النموذج الصادر من المركز ، وهذا ما ذهب اليه الدكتور سعيد علوش حين رأى ان المؤرخ الادبي ((يقع ضحية مجموعة من الاسقاطات ، إذ لم تكن نفس الخلفيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية متماثلة في العالم العربي ، حتى يمكن ان نجريها على فضاء شاسع ، ودول ذات خصوصيات متعددة ، والى تاريخ قريب ، كان تاريخ الادب العربي هو التاريخ الادبي لمصر او للبنان ، تبعا للالحاق القسري ، ولا يمكن للادب الجزائري مثلا ان يضيف داخله بسهولة ، وقد كان الاولى قبل خوض تاريخ الادب العام ، الاعتماد على تاريخ الادب الخاص بكل دولة عربية ، حتى تكتسب شرعية مقابلاتها ، ودمج عناصر تحولها ، ضمن ما يقوم نقولا زيادة ، باقرار صلاحيته ، لمجموع العالم العربي ، فهناك من العناصر ما يعمل في دولة عربية اكثر من غيرها ، كما ان منها ما لا ينطبق تماما على خصوصيتها )) (٨٥) ، وهذا ما يجعل التعميم حالة معقدة ، فالنتاجات الثقافية في دولة عربية ما لا يمكن ان تعمم بوصفها انموذجا لحالة عربية شاملة بقدر ما تكون تمثل حالة خاصة ، ولكل بلد له نتاجه الخاص ، فاذا ما شكل ظاهرة عامة عندئذ نستطيع ان نجعل منه انموذجا لكل الثقافة العربية ، وهذا ما ينطبق على العراق تمثيلا ، فالمشهد العراقي في جميع مراحله لم يكن غائبا على الحركة النهضوية حتى ومصر تعيش بداياتها مع الحملة الفرنسية ، او بلاد الشام في انفتاحها المعرفي والثقافي ، وما فرزه مشهد العراق الثقافي في القرن التاسع عشر من نتاجات على مستويات ثقافية عدة لا يقل اهمية عما كان في تلك المناطق ، الا ان العراق كان محكوما بسياقات سياسية جعلته ينكفأ احيانا ويتباطأ مرات ، لكنه في كل الاحوال كان حاضرا بنتاجات مبدعيه رافضا التقوقع داخل الاطر الثقافية الضيقة .

* * * * *

**تجاوز التحيز :**

ان آليات تجاوز التحيز في المصنفات العربية لتاريخ الادب العربي - التي شكلت كتاباتهم البدايات التأسيسية في هذا المجال - يتطلب مراجعة فكرية نقدية متواصلة تسعى من خلاله الى قراءة حيادية بعيدة كل البعد عن المؤثرات الداخلية والخارجية ، ولهذا فان التحيز الذي وقع في كتابة تاريخ الادب لا يختلف عن اي تحيزات اخرى مست العلوم الاجتماعية والانسانية الاخرى ، وحتى تنجح اي مراجعة نقدية للعلوم الانسانية يجب ان تتخذ مسارين : مراجعة داخلية تقوم على قراءة للموروثات العربية التي عدت البذور الاولى لمصنفات تاريخ الادب العربي ، ومراجعة خارجية تركز على نقطة الالتقاء والافتراق بيننا وبين الآخر الغربي وتصفية ما حمل على التحيز في نقل آليات كتابة تاريخ الادب العربي لا سيما وان البداية التأسيسية كانت منبثقة من المستشرقين .

لهذا فان مراعاة الابعاد الفلسفية والمرجعية والفكرية والزمنية لاي كتابة تاريخية للادب العربي وتقويمها كفيل بتجاوز آثار التحيز التي شكلت عائقا حقيقيا لاي مسعى في اعادة كتابة

تاريخ ادبنا ، ومن هنا وجب علينا اعادة النظر في كل ما كتب وأُرخ لادبنا العربي ، بما يضمن نتائج نتجاوز من خلالها التحيزات المتمركزة في تمفصلات هذا التاريخ ، وبما يتيح لنا تأسيس ارضية تضع في حسابها اعتبارات الهوية الحضارية والنسق الزمني والمرجعيات الفكرية والراهن الاكاديمي لمناهجنا ومقرراتنا الدراسية التي تحتضنها مدارسنا وجامعتنا العربية في مراحلها المتعددة ، لان ما شهدته جامعاتنا في المرحلة السابقة - ولازال - ازاء اشكالية التحقيب الادبي المنبثق من المركزية الغربية انما استحال الى تحيز جماعي اشبه ما يكون تحيزا ترعاه المؤسسة الاكاديمية والتعليمية بمدارسها وجامعاتها ومراكزها البحثية ، التي تحولت فيما بعد الى واقع علمي مقدس لا يجوز المساس فيه او نقده ، ليلقي بتبعاته على اجيال من

---

## هوامش البحث :

(١) مقدمة د. حسن الطالب لكتاب ما التاريخ الادبي ، كليمان موازان : ١٠
(٢) المكون اليهودي في الحضارة الغربية ، د. سعد البازعي : ٢٦
(٣) لسان العرب ، ابن منظور : مادة حوز .
(٤) ينظر : كلمة في التحيز ، د. علي جمعه ، ضمن كتاب اشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد ، تحرير د. عبد الوهاب المسيري : ١١٧/٢ .
(٥) اعتداء الفكر العربي الحديث على ذاته اللغوية ، د. محمد اكرم سعد الدين ، ضمن كتاب اشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد : ١٢٧/١
(٦) معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، د. احمد زكي بدوي : ٣٩-٤٠
(٧) فقه التحيز ، د. عبدالوهاب المسيري ، ضمن كتاب اشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد : ١ / ١٩-٢٠
(٨) دليل الناقد الادبي ، د. ميجان الرويلي ، د. سعد البازعي : ١٠٥
(٩) فقه التحيز ، د.عبدالوهاب المسيري ضمن كتاب اشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد : ١ / ٣-٤
(١٠) في تاريخ الادب مفاهيم ومناهج : ٧
(١١) ينظر تاريخ الادب العربي ، كارل بروكلمان ، ت: عبد الحليم النجار : ١ / ٣٣-٣٥
(١٢) مقدمة حسن الطالب لكتاب ما التاريخ الادبي : ١٢
(١٣) دليل الناقد الادبي : ١٠٢
(١٤) مفهوم الايديولوجيا ، عبدالله العروي : ١٢٧
(١٥) العرب والفكر التاريخي ، عبدالله العروي : ١٦٤ ، وينظر : العرب وتاريخ الادب نموذج كتاب الاغاني ، د. احمد بو حسن : ١٣
(١٦) العرب وتاريخ الادب : ٥٧
(١٧) مفهوم التاريخ الادبي مجالات التوسع وآفاق التجديد ، د. حسن الطالب : ١٣
(١٨) تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان : ١٣/١
(١٩) تاريخ الادب العربي ، الزيات : ٤
(٢٠) تاريخ آداب اللغة العربية : ١ / ٧ - ٨
(٢١) العرب وتاريخ الادب : ١٢٠-١٢١-١٢٢
(٢٢) ينظر : تاريخ آداب اللغة العربية : ١ / ١٠ ، وينظر : الادب العربي بين الدلالة والتاريخ ، د. عدنان العلي : ٦٤
(٢٣) العرب وتاريخ الادب : ٦-٧-٨
(٢٤) كتاب الاغاني ، ابو فرج الاصفهاني : ١٨/ ١٧٤
(٢٥) الموازنة ، الآمدي : ٥٩

(٢٦) ينظر : العرب وتاريخ الادب : ٦٦
(٢٧) تاريخ الادب ، روبير اسكاربيت ، ضمن كتاب الادب والانواع الادبية مجموعة مؤلفين : ٦٨-٦٩
(٢٨) مكونات الادب المقارن في العالم العربي ، سعيد علوش : ٢١٧
(٢٩) الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة ، د. عبدالله ابراهيم : ١٧١
(٣٠) فقه التحيز ، د. عبد الوهاب المسيري ، ضمن كتاب اشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد : ١ / ٣٦-٣٧
(٣١) ينظر : مقدمة المترجم عبد الحليم النجار لكتاب تاريخ الادب العربي ، كارل بروكلمان : م .
(٣٢) في تاريخ الادب : ١٤١
(٣٣) ينظر كتاب كارلو نالينو : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني امية
(٣٤) ينظر : مدخل الى الادب العربي لهاملتون جب قراءة نقدية مع النص الانجليزي ، د. ابراهيم عوض : ٣٣-١٤٩
(٣٥) دراسة ادب اللغة العربية بمصر في النصف الاول من القرن العشرين ، احمد الشايب : ١٠
(٣٦) الوسيط في الادب العربي وتاريخه ، احمد الاسكندري ، مصطفى عناني : ٩
(٣٧) ينظر كتاب : ادب اللغة العربية ، محمد حسن نائل المرصفي .
(٣٨) تاريخ الادب العربي ، احمد حسن الزيات : ٥
(٣٩) تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، مجلة الهلال : ع : ٨ ، السنة ٢٠ ، ١ مايو ١٩١٢ : ، ٥٠٤ .
(٤٠) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها . يرى الدكتور عمر فروخ في كتابه تاريخ الادب العربي ان جرجي زيدان في كتابه لم يقدم جديدا سوى انه نقل جانبا من المادة التي كانت في الطبعة الاصلية من كتاب بروكلمان الى اللغة العربية ، خدمة لابناء اللغة العربية من الذين لا يعرفون اللغة الالمانية ، ومع ان عمل جرجي زيدان كان ادنى مستوى من عمل بروكلمان- على الرغم من ان الاول كان مبتكرا شاقا لطريق لم تشق من قبل وان الثاني كان مقلدا وسائرا على طريق قد شقها غيره - فان كتاب جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية) قد ادى للباحثين العرب ممن يجهلون اللغة الالمانية خدمة جليلة !!!. ينظر : تاريخ الادب العربي ، عمر فروخ : ١٨-١٩
(٤١) ينظر : المنهج الاستشراقي في تاريخ الادب والنقد ، ادريس الكريوي ، مجلة علامات ، ج : ٥٥ ، م : ١٤ ، محرم ١٤٢٦هـ ، مارس ٢٠٠٥ : ٢١٠
* تفيد الحقبة في الاصطلاح اللغوي العربي حبس الشيء ، كما تفيد المدة الزمنية ، فقد دلت على سنة ، او على عدة عقود ، ومصطلح Penode بالفرنسية يفيد مدة زمنية معينة ، وغالبا ما اقترنت بالحقب التاريخية الكبرى ، كما تفيد الدورة الزمنية المحدودة . ويفيد مصطلح Penod في الانجليزية حقبة من الزمن ، او علامة ترقيمية (،) (فاصلة) تقوم بتقطيع الجملة الى مقاطع لها علاقة بالمعاني الجزئية فيها . كما ان لها علاقة باتمام دورة زمنية او سلسلة من الاحداث ، اي انها تفيد مقطعا زمنيا محددا بظاهرة متكررة ، وبذلك تشمل معاني العصر ، العهد ، المرحلة ... اما مصطلح Zeit abschnitt في الالمانية فيتكون من مقطعين : Zeit اي الزمن او الوقت ، و Aschnitt ، اي المقطع ، وبذلك يفيد المصطلح مقطعا من الزمن . ينظر العرب وتاريخ الادب : ٥٢
(٤٢) مفهوم التاريخ ، عبدالله العروي : ٢٨٢
(٤٣) ينظر : مفهوم التاريخ ، عبدالله العروي : ٢٧٣ ، وينظر ايضا : ملاحظات واجتهادات حول مسألة التحقيب في التاريخ العربي ، محمد حواش ، ضمن كتاب التحقيب في التاريخ العربي ، تنسيق محمد مفتاح ، احمد بو حسن ، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية جامعة محمد الخامس ، المملكة المغربية ، الرباط ١٩٩٧ : ١٠٢
(٤٤) منطق التحقيب التاريخي ، محمد الطاهر المنصوري ، ضمن ندوة مجلة اسطور (التحقيب في التاريخ العربي الاسلامي) ، ع : ٣ ، كانون الثاني / يناير ٢٠١٦ : ٢٢٧
(٤٥) ينظر : في تاريخ الادب : ١٤٠
(٤٦) حول التحقيب التاريخي ، عبد الحميد هنية ، ضمن ندوة مجلة اسطور (التحقيب في التاريخ العربي الاسلامي) ، ع : ٣ ، كانون الثاني / يناير ٢٠١٦ : ٢٢٤- ٢٢٥

(٤٧) اشكالية التحقيب الكولونيالي للحملة الفرنسية على مصر مراجعة نقدية للمنظور الفرنسي ، ناصر سليمان ، ضمن ندوة مجلة اسطور (التحقيب في التاريخ العربي الاسلامي) ، ع : ٣ ، كانون الثاني / يناير ٢٠١٦ : ٢٣٧

(٤٨) تحقيب التابع ، د. حيدر سعيد ، ضمن ندوة مجلة اسطور (التحقيب في التاريخ العربي الاسلامي) ، ع : ٣ ، كانون الثاني / يناير ٢٠١٦ : ٢٨٢

(٤٩) ابعاد التحيز في دراسات النظام الدولي ، د. نادية مصطفى ، ضمن كتاب اشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد : ٢٥٨/٢

(٥٠) فقه التحيز ، د. عبد الوهاب المسيري ، ضمن كتاب اشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد : ٨٦

(٥١) مقدمة في علم الاستغراب : حسن حنفي : ٢٩

(٥٢) استقبال الآخر الغرب في النقد العربي الحديث ، د. سعد البازعي : ١٧

(٥٣) استقبال الآخر الغرب في النقد العربي الحديث : ٢٣

(٥٤) التحيز في كتابة التاريخ ، طارق البشري ، ضمن كتاب اشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد : ٢٣٣/٢

(٥٥) في تاريخ الادب : ٢٨٣ - ٢٨٤ ، ١٣٤ . وينظر تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان : ١ / ١٨٩-٢٠٢

(٥٦) تحقيب التابع ، د. حيدر سعيد ، ضمن ندوة مجلة اسطور (التحقيب في التاريخ العربي الاسلامي) ، ع : ٣ ، كانون الثاني / يناير ٢٠١٦ : ٢٨٢

(٥٧) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، د. بكري شيخ امين : ٥ ، وينظر ايضا : البحث الادبي ، د. شوقي ضيف : ٥٤

(٥٨) فتنة المتخيل .. خطاب الفتنة ومكائد الاستشراق ، محمد لطفي اليوسفي : ٢ / ١٣٧

(٥٩) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني امية ، كارلو نالينو : ٥٩

(٦٠) حفريات الاستشراق في نقد العقل الاسنشراقي ، سالم يفوت : ٦٥-٦٦

(٦١) تاريخ آداب اللغة العربية : ٢٠٩/١

(٦٢) تاريخ آداب اللغة العربية : ٢٩١/٣

(٦٣) تاريخ الادب العربي ، الزيات : ٢٥٤

(٦٤) تاريخ الادب العربي ، الزيات : ٤٠٣

(٦٥) في تاريخ الادب : ٢٨٤

(٦٦) ينظر على سبيل المثال لا الحصر : تطور الادب الحديث في مصر من اوائل القرن التاسع عشر الى قيام الحرب الكبرى الثانية ، د. احمد هيكل : ١٧-١٨ ، تاريخ الادب العربي ، حنا الفاخوري : ٨٦٩-٨٧٠ ، الادب العربي من الانحدار الى الازدهار ، جودت الركابي : ١٢٠ ، ١٢٤

(٦٧) فتنة المتخيل .. الكتابة ونداء الاقاصي ، محمد لطفي اليوسفي : ١ / ٧٢

(٦٨) البحث الادبي ، د. شوقي ضيف : ٥٤

(٦٩) نحن والتاريخ ، قسطنطين زريق : ٢٠

(٧٠) نحن والتاريخ : ٢٣٨

(٧١) مناهج الدراسة الادبية في الادب العربي عرض ونقد واقتراح ، شكري فيصل : ٤٠-٤١

(٧٢) فتنة المتخيل .. خطاب الفتنة ومكائد الاستشراق : ٢ / ١٣٧

(٧٣) الثابت والمتحول ، ادونيس علي احمد سعيد : ٥٣/٣

(٧٤) السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري واعادة تفسير النشأة : ١٣-١٤

(٧٥) تاريخ الادب العربي ، الزيات : ٤١٦ - ٤١٧ ، وينظر ايضا ما قاله نالينو : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني امية ، كارلو نالينو : ٦٠

(٧٦) السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري واعادة تفسير النشأة : ٢٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩

(٧٧) رسالة في الطريق الى ثقافتنا : ١٢٢ ، وينظر : افق الخطاب النقدي : ١٧١ ، وقد ذكر الاستاذ محمود محمد شاكر ان الجبرتي الكبير كان ((فقيها كبيرا نابها ، عالما باللغة وعلم الكلام ، وتصدر اماما مفتيا وهو في الرابعة والثلاثين من عمره ، ولكنه في سنة ١٧٣١ ولى وجهه شطر العلوم التي كانت تراثا مستغلقا على اهل

زمانه ، فجمع كتبها من كل مكان وحرص على لقاء من يعلم سر الفاظها ورموزها ، وقضى في ذلك عشر سنوات (١٧٣١-١٧٤١) ، حتى ملك ناصية الرموز كلها ، في الهندسة والكيمياء والسيمياء وعلم الهيئة (الفلك) والصنائع الحضارية كلها ، حتى النجارة والحدادة والسمكرة والخراطة والتجليد والنقش والموازين اتقنها وعرف اصولها ، وصار بيته زاخرا بكل اداة في صناعة وكل آلة ، وصار اماما عالما ايضا في اكثر الصناعات ، حتى لجأ اليه مهرة الصناع في كل صناعة ينهلون من علمه ويستفيدون مما جمع من المخطوطات والادوات ، لقد تحول بيت الجبرتي الكبير الى مجمع علمي او جامعة تكنولوجية بالمفهوم الحديث ، حيث اخذ الطلاب والصناع يتوافدون عليه للدرس والتدريب ، وحتى طبقت شهرته الآفاق وتجاوزت حدود مصر لدرجة انه حضر اليه طلاب من الافرنج وقرأوا عليه علم الهندسة وذلك في سنة ١٧٤٦م ، واهدوا اليه من صنائعهم وآلاتهم اشياء نفيسة ، وذهبوا الى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت ، واخرجوه من القوة الى الفعل ، واستخرجوا به الصنائع البديعة)) ، ينظر : رسالة في الطريق الى ثقافتنا ، محمود محمد شاكر : ٨٣

(٧٨) تباشير النهضة الادبية ، وليم الخازن : ١١

(٧٩) الفكر العربي البنى المتصارعة ، د. ناظم عودة : ١٩

* مما يذكر بخصوص المطبعة التي جلبها نابليون حيث انه لم يجلبها للمصريين وانما لاموره الرسمية التي تخص حملته العسكرية ولذلك عندما رجعوا الى فرنسا اخذوها معهم ، وقد اشترى المصريون مطبعة الحملة بعد ان شحنت الى فرنسا ، وظلت مهملة في احدى المدن المطلة على البحر المتوسط عشرين سنة !!! . ينظر : السردية العربية الحديثة : ٤١

(٨٠) الفكر العربي البنى المتصارعة ، د. ناظم عودة : ١٩-٢١،٢٩

(٨١) الفكر العربي البنى المتصارعة : ٢٧-٢٩ ، وينظر ايضا تباشير النهضة الادبية : ١١

(٨٢) افق الخطاب النقدي ، صبري حافظ : ١٦٧

(٨٣) اللغة من الحقبة الى الحالة ، تحقيب التابع ، د. حيدر سعيد ، ضمن ندوة مجلة اسطور (التحقيب في التاريخ العربي الاسلامي) ، ع : ٣ ، كانون الثاني / يناير ٢٠١٦ : ٢٨٢ ، ويلاحظ ان اغلب الذين ارخوا للادب العربي كانوا مصريين او ممن وفد على مصر واقام فيها كمثل جرجي زيدان .

(٨٤) اشكالية التيارات والتأثيرات الادبية في الوطن العربي ، د. سعيد علوش : ٣١-٣٢

(٨٥) اشكالية التيارات والتأثيرات الادبية في الوطن العربي : ٢١

## المصادر والمراجع

### اولا : الكتب :


**- الادب والانواع الادبية ، مجموعة من الاساتذة ، ترجمة : طاهر حجار ، دار طلاس للنشر ، دمشق ، سوريا .**

**- الادب العربي بين الدلالة والتاريخ ، د. عدنان عبيد العلي ، منشورات دامعة آل البيت ، ط : ١ ، ٢٠٠٠ .**

**- ادب اللغة العربية ، محمد حسن نائل المرصفي ، المطبعة الحسينية المصرية ، ١٩٠٨ .**

**- استقبال الآخر الغرب في النقد العربي الحديث ، د. سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ٢٠٠٤ .**

**- اشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد ، تحرير : د. عبد الوهاب المسيري ، المعهد العالمي للفكر الاسلامي ، ، فيرجينيا ، الولايات المتحدة الامريكية ، ط : ٢ ، ١٩٩٧**

**- اشكالية التيارات والتأثيرات الادبية في الوطن العربي ، د.سعيد علوش ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، ط : ١ ، ١٩٨٦**

**- افق الخطاب النقدي دراسات نظرية وقراءات تطبيقية ، د. صبري حافظ ، دار شرقيات للنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر ، ط : ١ ، ١٩٩٦**

**- البحث الادبي طبيعته مناهجه اصوله مصادره ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط : ٧ ، ١٩٩٢**

- تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني امية ، كارلو نالينو ، تقديم د. طه حسين ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط : ٢ ، ١٩٧٠
- تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، راجعه وعلق عليه د. شوقي ضيف ، دار الهلال ، مصر ، القاهرة ، د.ت .
- تاريخ الادب العربي ، كارل بروكلمان ، ت: د. عبد الحليم النجار ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، ط : ٤ . د.ت
- تاريخ الادب العربي ، احمد حسن الزيات ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، مصر .
- تاريخ الادب العربي ، د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط : ٤ ، ١٩٨١
- تاريخ الادب العربي ، حنا الفاخوري ، المطبعة البولسية ، ١٩٥٣
- التحقيب في التاريخ العربي ، تنسيق محمد مفتاح ، احمد بو حسن ، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية جامعة محمد الخامس ، المملكة المغربية ، الرباط ١٩٩٧
- تباشير النهضة الادبية ، وليم الخازن ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط : ١ ، ١٩٩٣ .
- الثابت والمتحول بحث في الابداع والتباع عند العرب ، علي احمد ادونيس ، دار الساقي بيروت ، لبنان ، ط : ٧ ، ١٩٩٤
- الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة (تداخل الانساق والمفاهيم ورهانات العولمة) ، د. عبدالله ابراهيم ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء المغرب – بيروت لبنان ، ط : ١ ، ١٩٩٩ .
- حفريات الاستشراق في نقد العقل الاسنشراقي ، سالم يفوت ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، بيروت – لبنان ، ط : ١ ١٩٨٩
- دراسة ادب اللغة العربية بمصر في النصف الاول من القرن العشرين ، احمد الشايب ، دار الظاهرية للنشر والتوزيع ، الكويت ، ط : ١ ، ٢٠١٨ .
- دليل الناقد الادبي اضاءة لاكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا ، د. ميجان الرويلي ، د. سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، بيروت – لبنان ، ط : ٥ ، ٢٠٠٧ .
- رسالة في الطريق الى ثقافتنا ، محمود محمد شاكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، ١٩٩٧
- السردية العربية الحديثة تفكيك الخطاب الاستعماري واعادة تفسير النشأة ، د.عبدالله ابراهيم، القاهرة ، مصر ، ١٩٩٧
- العرب وتاريخ الادب نموذج كتاب الاغاني ، احمد بو حسن ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ط : ١ ، ٢٠٠٣
- العرب والفكر التاريخي ، عبدالله العروي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، بيروت – لبنان ، ط : ٥ ، ٢٠٠٦
- فتنة المتخيل .. خطاب الفتنة ومكائد الاستشراق ، محمد لطفي اليوسفي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، دار الفارس ، عمان ، الاردن ، ط : ١ ، ٢٠٠٢
- فتنة المتخيل .. الكتابة ونداء الاقاصي ، محمد لطفي اليوسفي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، لبنان ، دار الفارس ، عمان ، الاردن ، ط : ١ ، ٢٠٠٢
- الفكر العربي البنى المتصارعة من خطاب الاستئناف الى خطاب الاختلاف ، د. ناظم عودة ، كنوز المعرفة ، عمان ، الاردن ، ط : ١ ، ٢٠١٧ .
- في تاريخ الادب مفاهيم ومناهج ، د. حسين الواد ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت – لبنان ، دار الفارس للنشر والتوزيع ، عمان – الاردن ، ط : ٢ ، ١٩٩٣
- كتاب الاغاني ، لابي فرج الاصفهاني ، تحقيق : عبد الكريم العزباوي ، اشراف محمد ابو الفضل ابراهيم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، ١٩٩٣ .
- لسان العرب ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الانصاري (٦٣٠-٧١١ه) ، طبعة جديدة اعتنى بتصحيحها امين محمد عبد الوهاب ، محمد الصادق العبيدي ، دار احياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت – لبنان ، ط : ٣ ، د.ت .

- ما التاريخ الادبي ، كليمان موازان ، ترجمة وتقديم : د. حسن الطالب ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان ط : ١ ، ٢٠١٠ .
- مدخل الى الادب العربي لهاملتون جب قراءة نقدية مع النص الانجليزي ، د. ابراهيم عوض ، المنار للطباعة والنشر ، القاهرة ، مصر ، ط : ١ ، ٢٠٠٨ .
- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ، د. بكري شيخ امين ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط : ٤ ، ١٩٨٦
- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية انجليزي – فرنسي - عربي ، د. احمد زكي بدوي ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٧ .
- مفهوم الايديولوجيا ، عبدالله العروي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، بيروت – لبنان ، ط : ٨ ، ٢٠١٢
- مفهوم التاريخ ، عبدالله العروي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، بيروت – لبنان ، ط : ٤ ، ٢٠٠٥
- مفهوم التاريخ الادبي مجالات التوسع وآفاق التجديد ، د. حسن الطالب ، منشورات دار أبي رقراق للطباعة والنشر ، الرباط ، المغرب ، ط : ١ ، ٢٠٠٨
- مقدمة في علم الاستغراب : حسن حنفي ، الدار الفنية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ .
- مكونات الادب المقارن في العالم العربي ، سعيد علوش ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت – لبنان ، سوشبريس ، الدار البيضاء – المغرب ، ط : ١ ، ١٩٨٧ .
- المكون اليهودي في الحضارة الغربية ، د. سعد البازعي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء – المغرب ، بيروت – لبنان ، ط : ١ ، ٢٠٠٧ .
- مناهج الدراسة الادبية في الادب العربي عرض ونقد واقتراح ، د. شكري فيصل ، مكتبة الخانجي ، مصر ، مكتبة المثنى ، بغداد : ١ ، ١٩٥٣
- الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، لابي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، تحقيق : السيد احمد صقر ، دار المعارف ، الاهرة ، مصر ، ط : ٤ ، ١٩٩٢ .
- نحن والتاريخ مطالبات وتساؤلات في صناعة التاريخ وصنع التاريخ ، قسطنطين زريق ، دار العلم للملايين بيروت ، لبنان ط : ٦ ، ١٩٨٥ .
- الوسيط في الادب العربي وتاريخه ، احمد الاسكندري ، مصطفى عناني ، مطبعة المعارف ، مصر ، ط : ١ ، ١٩١٩

**ثانيا : الدوريات :**

- تاريخ آداب اللغة العربية ، جرجي زيدان ، مجلة الهلال : ع : ٨ ، السنة ٢٠ ، ١ مايو ١٩١٢
- التحقيب في التاريخ العربي الاسلامي ، ندوة مجلة اسطور ، ع : ٣ ، كانون الثاني / يناير ٢٠١٦ ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات ، الدوحة ، قطر .
- المنهج الاستشراقي في تاريخ الادب والنقد ، ادريس الكريوي ، مجلة علامات ، ج : ٥٥ ، م : ١٤ ، محرم ١٤٢٦هـ ، مارس ٢٠٠٥ ، النادي الثقافي بجدة ، السعودية .

## Sources and references

**First: Books:**

- Literature and literary genres, a group of professors, translation: Taher Hajjar, Tlass Publishing House, Damascus, Syria.
- Arabic literature between significance and history, d. Adnan Obaid Al-Ali, Aal Al-Bayt Tearful Publications, Ed .: 1, 2000.

- Arabic Language Literature, Muhammad Hassan Nael Al-Marsafi, The Egyptian Husseinieh Press, 1908.
- Receiving the other west in modern Arab criticism, d. Saad Al-Bazai, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, Beirut - Lebanon, i: 1, 2004.
- The problem of bias is an epistemological view and a call for diligence, edited by: Dr. Abdel-Wahab Al-Messiri, The International Institute for Islamic Thought, Virginia, United States of America, ed: 2, 1997
- The problematic of literary currents and influences in the Arab world, Dr. Said Alloush, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, ed: 1, 1986
- The critical discourse approved theoretical studies and applied readings, d. Sabry Hafez, Sharqiyat House for Publishing and Distribution, Cairo, Egypt, ed .: 1, 1996
- Literary research, its nature, methodology, the origins of its sources, d. Shawky Dhaif, Dar Al Maaref, Cairo, Egypt, Ed .: 7, 1992
- History of Arab literature from pre-Islamic to the era of the Umayyads, Carlo Nalino, presented by Dr. Taha Hussein, Dar Al Maaref, Cairo, Egypt, T: 2, 1970
- History of Arabic Language Literature, Gerji Zidan, reviewed and commented by Dr. Shawky Deif, Dar Al-Hilal, Egypt, Cairo,
- History of Arab Literature, Karl Brockelmann, T.: Dr. Abdel Halim Al-Najjar, Dar Al Maaref, Cairo, Egypt, T: 4
- History of Arab Literature, Ahmed Hassan Al-Zayat, Nahdet Misr Publishing House, Cairo, Egypt.
- History of Arabic literature, d. Omar Farroukh, House of Knowledge for the Millions, Beirut, Lebanon, ed .: 4, 1981
- A History of Arab Literature, Hanna Al-Fakhoury, Al-Bolsy Press, 1953
- Investigations in Arab History, coordinated by Muhammad Mafnah, Ahmed Bou Hassan, Publications of the Faculty of Literature and Human Sciences, University of Mohammed V, Kingdom of Morocco, Rabat 1997
- Preachers of the Literary Renaissance, William Al-Khazen, House of Knowledge for the Millions, Beirut, Lebanon, ed: 1, 1993.
- Fixed and Transforming: A Study of Creativity and Adoption among the Arabs, Ali Ahmad Adonis, Saqi House Beirut, Lebanon, Ed .: 7, 1994
- Arab culture and borrowed references (overlapping coordination, concepts, and globalization stakes), Dr. Abdullah Ibrahim, the Arab Cultural Center, Casablanca, Morocco, Beirut, Lebanon, i: 1, 1999.
- Excavations of Orientalism in the Critique of the Orientalist Mind, Salem Yefoot, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, Beirut - Lebanon, ed: 1 1989

- A Study of Arabic Language Literature in Egypt in the First Half of the Twentieth Century, Ahmad Al-Shayeb, Dar Al-Dhahiriya for Publishing and Distribution, Kuwait, Edition: 1, 2018.

- The literary critic's guide illuminating more than seventy contemporary trends and critical terms, d. Megan Al-Ruwaili, Dr. Saad Al-Bazai, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, Beirut - Lebanon, Edition: 5, 2007.

- A Message on the Road to Our Culture, Mahmoud Mohamed Shaker, The Egyptian General Book Authority, Cairo, Egypt, 1997

- The Modern Arab Narrative: Deconstructing the Colonial Discourse and Reinterpreting the Origins, Dr. Abdullah Ibrahim, Cairo, Egypt, 1997

- The Arabs and the History of Literature, The Model of the Book of Songs, Ahmed Bou Hassan, Toubkal Publishing House, Casablanca, Morocco, ed: 1, 2003

- The Arabs and Historical Thought, Abdallah Laroui, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, Beirut - Lebanon, 5th Edition, 2006

- The fitnah of the imagined ... the discourse of sedition and the machinations of Orientalism, Muhammad Lotfi Al-Yousfi, The Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, Lebanon, Dar Al-Fares, Amman, Jordan, ed: 1, 2002

- The Fitnah of the Imagined ... Writing and the Call of Al-Aqsa, Muhammad Lotfi Al-Yousfi, The Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut, Lebanon, Dar Al-Fares, Amman, Jordan, i: 1, 2002

- Arab thought, the conflicting structures, from the letter of appeal to the discourse of difference, d. Nazem Odeh, Treasures of Knowledge, Amman, Jordan, i: 1, 2017.

- In the history of literature concepts and approaches, d. Hussein Al-Wad, The Arab Foundation for Studies and Publishing, Beirut - Lebanon, Dar Al-Faris for Publishing and Distribution, Amman - Jordan, ed: 2, 1993

- The Book of Songs, by Abi Faraj Al-Isfahani, edited by: Abd al-Karim al-Azbawi, Ashraf Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim, The General Egyptian Book Authority, Cairo, Egypt, 1993.

- Lisan al-Arab Ibn Manzur, Jamal al-Din Muhammad bin Makram al-Ansari (630-711 AH), new edition taken care of corrected by Amin Muhammad Abdel-Wahhab, Muhammad al-Sadiq al-Ubaidi, House of Revival of Arab Heritage, Arab History Foundation, Beirut - Lebanon, Edition: 3

- What literary history, Clement Mawazine, translation and presentation by: Dr. Hassan Al-Taleb, The New United Book House, Beirut, Lebanon 1: 1, 2010.

- An Introduction to Arabic Literature by Hamilton. A critical reading with the English text, Dr. Ibrahim Awad, Al-Manar Printing and Publishing, Cairo, Egypt, ed .: 1, 2008.

- Readings in Mamluk and Ottoman poetry, d. Bakri Sheikh Amin, House of Knowledge for the Millions, Beirut, Lebanon, ed .: 4, 1986

- Glossary of social science terms English - French - Arabic, Dr. Ahmed Zaki Badawi, Lebanon Library, 1977.

- The concept of ideology, Abdullah Laroui, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, Beirut - Lebanon, Edition: 8, 2012

- Concept of History, Abdullah Laroui, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, Beirut - Lebanon, ed: 4, 2005

- The concept of literary history, areas of expansion and prospects for renewal, d. Hassan Al-Talib, Bouregreg House Publications for Printing and Publishing, Rabat, Morocco, Edition 1, 2008

- An introduction to the science of curiosity: Hassan Hanafi, Art House for Publishing and Distribution, 1991.

- Components of Comparative Literature in the Arab World, Said Alloush, The International Book Company, Beirut - Lebanon, Souchpress, Casablanca - Morocco, ed: 1, 1987.

- The Jewish component in Western civilization, d. Saad Al-Bazai, Arab Cultural Center, Casablanca - Morocco, Beirut - Lebanon, i: 1, 2007.

- Literary study curricula in Arab literature, presentation, criticism and suggestion, d. Shukri Faisal, Al-Khanji Library, Egypt, Al-Muthanna Library, Baghdad: 1, 1953

- The Balance between the Poetry of Abu Tammam and Al-Buhtry, by Abi Al-Qasim Al-Hassan Bin Bishr Al-Amadi, Edited by: Mr. Ahmad Saqr, Dar Al-Maarif, Al-Ahra, Egypt, ed .: 4, 1992.

- We and History are claims and questions in history making and history making, Konstantin Zureik, Dar Al-Elm for the Millions Beirut, Lebanon Edition 6, 1985.

- Mediator in Arabic Literature and its History, Ahmed Al-Iskandari, Mustafa Anani, Al-Maarif Press, Egypt, Edition: 1, 1919

**Second: the periodicals:**

- History of the Literature of the Arabic Language, Gerji Zidan, Al-Hilal Magazine: No. 8, Year 20, May 1, 1912

- Investigations in Arab and Islamic History, Symposium of Ostur Magazine, No. 3, January 2016, Arab Center for Research and Policy Studies, Doha, Qatar.

- The Orientalist Approach in the History of Literature and Criticism, Idris Al-Karawi, Alamat Magazine, C: 55, AD: 14, Muharram 1426 AH, March 2005, The Cultural Club in Jeddah, Saudi Arabia.